



Cultural Geography of Andalusia during the Taifa Kingdoms Era

Dr. Abdullah Ali Ahmed Al-Qarni*

aaqrni@uqu.edu.sa

Abstract:

This study investigates the interplay between geography, people, and culture in Andalusia during the Taifa period of the 5th century AH/11th century CE, using cultural geography as a lens to understand how the collapse of Cordoba's central authority transformed the region from a unified to a fragmented cultural space. It highlights how ethnic and demographic distribution shaped the identity of each kingdom, and how Taifa rulers employed culture, architecture, and literature to legitimize their authority and offset military weakness. The research traces cultural phenomena born of this spatial-political interaction, including the flourishing of the muwashshah as a hybrid poetic form, the rise of translation and scientific inquiry, and the emergence of new creative centers such as Seville, Toledo, and Granada. Through a historical-analytical approach, the study connects cultural expressions to their geopolitical contexts, concluding that fragmentation fostered intense cultural competition, which paradoxically produced a golden age of Andalusian creativity even as it sowed the seeds of political decline.

Keywords: Cultural Geography, Andalusian Culture, Taifa Kings, Andalusian Identity, Andalusia.

* Assistant Professor of Law, Department of Law, Faculty of Science and Theoretical Studies, Saudi Electronic University, Kingdom of Saudi Arabia

Cite this article as: Al-Qarni, A. A. A. (2026). Cultural Geography of Andalusia during the Taifa Kingdoms Era, *Journal of Arts*, 14(2), 708 -735. <https://doi.org/10.35696/eh8nee79>

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.



الجغرافيا الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف

د. عبد الله علي أحمد القرني*

aaqrni@uqu.edu.sa

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف العلاقة بين الجغرافيا والإنسان وثقافته في الأندلس، خلال حقبة ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري. وينطلق البحث من مفهوم الجغرافيا الثقافية لتحليل كيف أدى التفتت السياسي، وسقوط المركزية القرطبية إلى إعادة تشكيل المشهد الثقافي للأندلسي، محولاً الأندلس من فضاء أحادي المركز إلى فضاء متعدد الأقطاب، وتناقش الدراسة أثر التوزيع السكاني والعرقى على الهوية الثقافية لكل مملكة، وكيف وظّف ملوك الطوائف الثقافة، والعمارة، والأدب باعتبارها أدوات لإضفاء الشرعية على ملكهم، وتعويض الضعف العسكري. كما يرصد البحث ظواهر ثقافية نابعة من هذا التفاعل المكاني، كازدهار الموشحات، باعتباره فنّاً هجيناً، ونشاط حركة الترجمة، والعلوم الدقيقة، وبروز العواصم الجديدة، كإشبيلية، وطليطلة، وغرناطة، وغيرها باعتبارها حواضن للإبداع. وقد اعتمد البحث المنهج التاريخي والتحليلي، مع الاستعانة بالمقاربة الجغرافيا الثقافية؛ لاستقراء النصوص التاريخية، والأدبية، وربط الظواهر الثقافية بسياقاتها المكانية، والسياسية. وخلصت الدراسة إلى أن التمزق الجغرافي السياسي وُلد حالة من التنافسية الثقافية، جعلت ذلك العصر الذهبي للثقافة الأندلسية، رغم ما حمله من بذور الانهيار السياسي.

الكلمات المفتاحية: الجغرافيا الثقافية، الثقافة الأندلسية، ملوك الطوائف، الهوية الأندلسية، الأندلس.

* أستاذ الثقافة الإسلامية المشارك، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: القرني، ع. ع. ع. (2026). الجغرافيا الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، مجلة الآداب، 14 (2)، 708 - 735

<https://doi.org/10.35696/eh8nee79>

© نُشر هذا البحث وفقاً لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:
تُعد فترة ملوك الطوائف مرحلة حاسمة في تاريخ الأندلس الإسلامي؛ إذ شهدت تفكك الدولة الأموية، وفتتها إلى ممالك صغيرة مستقلة أثرت في الهوية، والثقافة الاجتماعية.

وتنبثق أهمية هذه المرحلة من التباين السياسي، والجغرافي، وكذلك التنوع العرقي، والديني الذي تميزت به المجتمعات الأندلسية، وترتكز هذه الدراسة على استقصاء الجوانب الثقافية، والاجتماعية المرتبطة بالجغرافيا لهذه المرحلة، مع تحليل للتفاعل بين مكونات المجتمع، ودور تلك الممالك في رعاية العلوم والفنون، واستمرار الإرث المعماري الثري الذي بقي شاهداً على تلك الحقبة.

وعصر ملوك الطوائف -رغم الاضطراب السياسي فيه- يُعد العصر الذهبي للثقافة، والأدب، والعمارة في الأندلس، وفيه تبلورت جغرافيا ثقافية متميزة، حيث تنافست كل مملكة لتكون قبلةً للعلماء، والشعراء.
وتعد فترة ملوك الطوائف من أكثر فترات التاريخ الأندلسي تناقضاً؛ فهي فترة ضعف سياسي، وتشرذم جغرافي، ولكنها في الوقت ذاته فترة ازدهار ثقافي، وفكري استثنائي.

كما لا يمكن فهم التاريخ الحضاري للأندلس بمعزل عن مسرحه الجغرافي؛ فالأرض لم تكن مجرد وعاء صامت للأحداث، بل كانت فاعلاً رئيساً في تشكيل الهوية، وكان لها الدور البارز في إنتاج أنماط ثقافية، واجتماعية جديدة تستوجب الدراسة والتحليل، ومن هذا المنطلق يأتي هذا البحث: (الجغرافيا الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف).
أهمية البحث:

تظهر جوانب أهمية البحث فيما يأتي:

- 1- تسليط الضوء على ظاهرة التنافس الثقافي كبديل أو موازٍ للتنافس السياسي، وكيف أدى تعدد المراكز السياسية، كإشبيلية، وقرطبة، وطليطلة، وبطليوس، وغيرها إلى لامركزية ثقافية أثرت الحضارة الإسلامية.
- 2- الاستفادة من الجغرافيا الثقافية كأداة تحليلية لفهم الواقع الثقافي الأندلسي، متجاوزاً السرد التاريخي التقليدي للأحداث.
- 3- التعريف بآليات التواصل الثقافي الإنساني التي تجاوزت الانغلاق السياسي لتكون أكثر رحابة منه.
- 4- الوقوف على عوامل الانحسار والهدم لدولة الحضارة في الأندلس، وأسباب ذلك.

مشكلة البحث وأسئلته:

يسعى البحث لرصد أثر التوزيع الجغرافي، والسياسي لدول الطوائف في تشكيل الخريطة الثقافية للأندلس، وتأثير ذلك على الهوية الثقافية الجامعة في ذلك العصر، ومراكزها المؤثرة، وهو موضوع أحسبه لم يدرس من قبل، حسب علمي المتواضع.

وتتمثل الفجوة البحثية في أن الدراسات السابقة تناولت عصر ملوك الطوائف من زوايا تاريخية أو علمية أو سياسية، دون اعتماد مقارنة الجغرافيا الثقافية في تحليل تشكّل الخريطة الثقافية للأندلس، بينما يسعى هذا البحث إلى إبراز أثر التوزيع الجغرافي والسياسي في تشكيل المراكز الثقافية والهوية الجامعة، وهو جانب لم يُدرس بشكل مستقل ومتكامل، وهو ما سيتم إبرازه من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس للبحث، وهو: كيف أعادت الجغرافيا السياسية المتشردمة تشكيل الخارطة الثقافية؟ وما هو الناتج الثقافي لتعدد العواصم الذي نجم عن ذلك؟
ويتفرع عن السؤال الرئيس للبحث عدد من الأسئلة:



- 1- كيف ساهم التعدد والعداء السياسي في خلق تعددية ثقافية، بلامركزية في الإنتاج المعرفي؟
- 2- ما الأثر الذي تركه الواقع السكاني والعرقى المتعدد على اللغة والأدب؟
- 3- كيف انعكس الصراع على المكان بسقوط المدن والحروب في الوجدان الثقافي الأندلسي؟

أهداف البحث:

- تسعى هذا الدراسة لتحقيق عدد من الأهداف، أبرزها:
- 1- رصد التحولات في المشهد الثقافي للأندلس بعد انهيار الخلافة الأموية.
 - 2- تسليط الضوء على دور الحواضر والمدن الكبرى كجهات فاعلة ومستقلة في صناعة الثقافة، بدلاً من التركيز على العاصمة المركزية، ورسم خريطة للمراكز الثقافية الكبرى في عصر الطوائف، مع إبراز الخصائص الفنية، والعلمية المميزة لكل بيئة جغرافية.
 - 3- فهم آليات الإنتاج الثقافي، وكشف العلاقة بين الإنسان وبين المكان، وكيف استخدم الملوك الثقافة كبديل عن القوة العسكرية المفقودة.
 - 4- تحليل دور شبكات الاتصال كالرسائل والرحلات، في ربط الممالك الثقافية المنعزلة سياسياً.
 - 5- دراسة المظاهر المادية للثقافة، كالمساجد، والقصور، كرموز للمنافسة الجغرافية بين الملوك.

منهج البحث:

- اعتمد البحث المنهج التاريخي والتحليلي، مع الاستعانة بالمقاربة الجغرافية الثقافية؛ لاستقراء النصوص التاريخية، والأدبية، وربط الظواهر الثقافية بسياقاتها المكانية، والسياسية.
- وسيتم تطبيق هذين المنهجين من خلال:
- 1- جمع المادة بتتبع المصادر المتعلقة بعصر ملوك الطوائف، وانتقاء النصوص ذات الصلة بالظواهر الثقافية.
 - 2- تحليل النصوص لاستخراج المعطيات الثقافية والعلمية ودلالاتها.
 - 3- توظيف مقاربة الجغرافيا الثقافية لربط الظواهر بالمكان، والتوزيع الجغرافي للمراكز الثقافية.
 - 4- بناء صورة شاملة للخريطة الثقافية وبيان أثر العاملين الجغرافي والسياسي في تشكيلها.

الدراسات السابقة:

هذا الموضوع: (الجغرافيا الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف)، قد درس من النواحي التاريخية، والعلمية، والأدبية، والسياسية، بيد أنه لم يحظ بدراسة تتناوله من خلال مقاربة الجغرافيا الثقافية، ومن هنا تكمن جدته وأصالته.

ومن الأبحاث التي تناولت بعض النواحي السابقة:

- 1- دراسة بعنوان: (الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس)، للباحث: سعد عبد الله البشري، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1986م، وهي تختلف عن هذا البحث في كون الدراسة السابقة عبارة عن رصد ببلوجرافيا للمصنفات في هذا العصر في مختلف العلوم، بينما يتناول البحث الحالي الجغرافيا الثقافية كمجال يتشكل من خلاله المشهد الثقافي ككل.
- 2- دراسة بعنوان: عصر ملوك الطوائف في الأندلس بين الانحطاط السياسي والازدهار العلمي، لنصيرة سالمي، ونبيلة عشوش، الناشر: جامعة محمد بوضياف بالمسيلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015م، والفرق بين هذه الدراسة والبحث الحالي هو أن الدراسة السابقة تركز على المفارقة بين التفكك السياسي والنهضة العلمية، بينما البحث الحالي يهتم بتوَجُّع المراكز الثقافية، وتأثير البيئة والمكان في تشكيل النشاط العلمي والثقافي في تلك المرحلة.



خطة البحث:

انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، كالاتي:
المقدمة، وفيها: أهمية البحث، ومشكلته وأسئلته، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطة البحث.
والتمهيد وفيه: التعريف بالجغرافيا، والثقافة، ونبذة عن تاريخ عصر ملوك الطوائف.
المبحث الأول: العواصم الكبرى: البيئات الجغرافية، والمراكز الثقافية في الأندلس إبان عهد ملوك الطوائف، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: قرطبة وإشبيلية مركز الخلافة الأول، وبلاط الحكم الجديد الذي ينشد المركزية الثانية.
المطلب الثاني: غرناطة بني زيري، وبطليوس بني الأفطس ووجودهم البربري في الثقافة والسياسة.
المطلب الثالث: طليطلة وسرقسطة جغرافيا الثغور، المهتمة بالعلوم العقلية.
المطلب الرابع: المراكز الشرقية والجنوبية في ألمرية ودانية، والاهتمام بالتخصص العلمي للأطراف.
المبحث الثاني: آليات التواصل الثقافي عبر الجغرافيا الأندلسية، وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الرحلة العلمية والإصلاحية للعلماء.
المطلب الثاني: أدب الرسائل كسلطة عابرة للحدود الجديدة.
المطلب الثالث: اللغة والهوية المشتركة في مواجهة الآخر.
المطلب الرابع: المدونات التي كتبت عن صورة المدن الأندلسية وجغرافيتها التي خلدها أهل الأندلس، والرحالة الذين وفدوا إليها.

المبحث الثالث: خصائص الجغرافيا الثقافية للأندلس والتحديات التي واجهتها في عصر ملوك الطوائف، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خصائص الجغرافيا الثقافية للأندلس.
المطلب الثاني: التحديات التي واجهتها الجغرافيا الثقافية في عصر ملوك الطوائف.
الخاتمة، وفيها: أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد:

البنيان الحضاري لأي أمة ما هو إلا نتاج تفاعل معقد، ودائم بين الإنسان ومسرحة الأرض؛ فالأرض وهما الله لنا، وفيها الموارد، والفرص، والتحديات، والإنسان يستجيب لها بالبناء والتكيف بما يتحلى به من قيم وأخلاق، وتلك إحدى تجليات الثقافة.

ولما كان البحث يُعنى بدراسة الأندلس في حقبة شديدة التعقيد، كعصر الطوائف، وقبل الولوج في التفاصيل الثقافية والتاريخية عن ذلك، نشر في تحرير مصطلحات الدراسة، وضبط دلالة الجغرافيا والثقافة، مع نبذة تاريخية عن عصر الطوائف، وذلك على النحو الآتي:

التعريف بالجغرافيا والثقافة:

مفهوم الجغرافيا:

هي العلم الذي يدرس الأرض بوصفها موطنًا للإنسان، ويرصد الظواهر الطبيعية من تضاريس، ومناخ، وموارد. (أبو عيانة، وأبو راضي، ص 257).



فهي جزء أساس من دراسة تأثير البيئة الطبيعية في الإنسان، وأوجه نشاطه المختلفة، وكلمة الجغرافيا تطور مدلولها، وتعددت تعريفاتها بين الباحثين مع مرور الزمن، وعلى الرغم من اختلاف التعريفات لها، إلا أنها واصلت تمحورها بصفة عامة حول دراسة الإنسان، وارتباطه بالأرض باعتبارها موطنًا للإنسان، وإدراك ما بينهما من علاقات توزيعًا وتحليلًا، وتعليلاً. (محمد بن، والفراء، ص 20).

وفي السياق الأندلسي تشير الجغرافيا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية التي تتميز بتنوع تضاريسي فريد؛ فهي معزولة نسبياً عن أوروبا بسلسلة جبال البرينيه (Pyrenees)، ومتصلة بإفريقيا عبر مضيق جبل طارق، وتزخر بالأهوار، مثل: الوادي الكبير، والسهول الخصبة التي ساعدت على الاستقرار البشري.

وهذا الموقع جعلها مسرحاً لتفاعل الحضارات، وتنوع المناخ، والمحاصيل الزراعية، مما هيأ لها أسباب الاستقرار، والرخاء الاقتصادي الذي هو أساس الحضارة. (الجيوسي، 1999، 21/1، 22).
مفهوم الثقافة:

من أشهر تعريفاتها أنها: "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والأعراف، وكل القدرات، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع". (Tylor. P.1، كوش، 2007م، ص 6).

فهي نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته، ومحيطه، وتشمل اللغة، والدين، والفنون، والعادات، والعلوم. وفي الأندلس لم تكن الثقافة أحادية، بل كانت نسيجاً معقداً نتج عن انصهار العناصر العربية، والبربرية، والمولدين، والصقالبة، واليهود، مما أنتج إرثاً حضارياً متميزاً عن المشرق الإسلامي، وعن الغرب الأوروبي.

فهذا التمازج الاجتماعي أنتج ثقافة أندلسية ذات طابع خاص، جمعت بين الفصاحة العربية، والروح الأوروبية، والموارث المحلية، وانعكس ذلك في لغتهم، وعاداتهم، وفنونهم. (الجيوسي، 1999، 59/1).

وإذا أردنا تعريف الجغرافيا الثقافية فهي: ذلك الحقل المعرفي الذي يدرس العلاقة الجدلية بين المكان والإنسان، إذ إنها لا تكتفي بوصف الجبال، والأهوار، بل تبحث في كيفية تشكيل هذه البيئة لعقلية الإنسان الأندلسي، وطباعه، وإنتاجه الفكري الساكن بذلك الجزء من الأرض.

فالجغرافيا الثقافية تتجاوز الوصف المجرد للتضاريس لتبحث عن أثر المكان في تشكيل الهوية، والإنتاج الفكري في الأندلس، فقد كان للبيئة الجغرافية دورٌ حاسمٌ في صياغة الشخصية الأندلسية؛ فجمال الطبيعة، واعتدال المناخ ساهما في رقة الطابع، وشيوع مجالس الأدب، والحراك العلمي، والأدبي، والفني، والمعماري فيها أكثر من غيرها من الأقاليم.

وفي الجغرافيا الثقافية: تُدرس الأماكن بعيداً عن كونها حيزاً فيزيائياً فحسب، بل كمجال حيوي، يتشكل بفعل الثقافة، ويتفاعل معها، ثم تمتد بعد ذلك لدراسة المشهد الثقافي ككل، فتحول المشهد الطبيعي إلى مشهد ثقافي بفعل مجموعة بشرية معينة. (كرانغ، 2005، ص 17 - 19).

فالتبيعة الأندلسية الخلاية، والمتنوعة لم تكن مجرد خلفية صامته، بل كانت محفزاً للإبداع الشعري، والفني، كما أن التوزيع الجغرافي للمدن، مثل: قرطبة، وإشبيلية، وطليطلة، وغرناطة خلق مراكز إشعاع حضاري متعددة، مما مهد الطريق لنشأة دول ملوك الطوائف، التي استقل كل منها بخصائص جغرافية، وثقافية معينة، لكنها ظلت تدور في فلك الحضارة الإسلامية الأندلسية الشاملة. (الجيوسي، 1999، 743/2)

وسيتيم إبراز الجغرافيا الثقافية في عصر ملوك الطوائف في هذا البحث من خلال:

1 - علاقة الجغرافيا الثقافية بالمكان والسلطة في سياق الأندلس.

2 - رسم خريطة للمراكز الثقافية في دول الطوائف، وربطها بالتقسيمات السياسية.



- 3- تحليل أثر الموقع الجغرافي (عواصم، سواحل، ثغور) في ازدهار النشاط العلمي والأدبي.
- 4- تتبع حركة العلماء والكتب بين الحواضر، وبيان دورها في تشكيل الشبكات الثقافية.
- 5- استنتاج أثر هذا التوزيع في بناء هوية ثقافية جامعة رغم التشتت والتفتت السياسي.

نبذة عن تاريخ عصر ملوك الطوائف:

يُمثل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في التاريخ الأندلسي حقبة فريدة، تجسد بشكل ظاهر وعلى حد سواء التمزق السياسي، والازدهار الحضاري، وهي الفترة التي تلت سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، وانتهت بدخول المرابطين القادمين من عدوة المغرب.

الإطار الزمني والنشأة:

بعد أن فُتحت الأندلس عام (92هـ) الموافق (711م) ظلت الأندلس مملكة إسلامية موحدة وقوية، حتى انتهى عصر بني أمية فعلياً بخلع أهل قرطبة لآخر أمراء بني أمية، وإعلان طردهم من قرطبة، لتتقسّم الأندلس بعد التوحيد إلى دويلات صغيرة متناحرة، ورغم ذلك كان عصر تلك الممالك من أسعد عصور الثقافة، والفكر في الأندلس، فبلغت فيه الحضارة الإسلامية ذروتها في ظل ضعف سياسي أدى إلى تدخل خارجي من المرابطين في آخر أمرها.

فكانت بداية هذا العصر بإعلان إلغاء الخلافة الأموية فعلياً في قرطبة عام (422هـ) الموافق (1031م)، بعد فترة مضطربة عُرفت بالفتنة الكبرى، إذ حدثت في قرطبة عاصمة الخلافة اضطرابات متتالية داخل بيت الحكم الأموي ومن دار معه في ذلك، ولم يكن التفرق والانفصال الذي حدث أواخر الدولة العامرية والأمراء الأمويين عملية واحدة، بل كانت فتن تتابع، تروي لنا أن الأندلس لم تسقط فجأة في الفوضى، وأن رؤساء العشائر، والوزراء، والقادة الذين استقلوا في أقاليمهم تحولوا أثناء الفتنة إلى ملوك بحكم الأمر الواقع، فكان هناك قادة محليون من البربر، والصقالبة، والمولدين، والقضاة، والأعيان، قد سيطروا على أقاليمهم أثناء الفتنة، وتحولوا إلى ملوك مستقلين بعد سقوط الخلافة مباشرة.

وانقسمت الجغرافية الأندلسية الموحدة في ذلك الحين إلى ما يزيد عن عشرين دويلة صغيرة، تتفاوت في القوة، والمساحة، ومن أبرزها: بنو عبّاد في إشبيلية، وهم أقوى الطوائف، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة، وبنو زيري في غرناطة، وبنو الأفطس في بطليوس، وغيرهم. (الشنتري، 1981، 13/3-60).

ويمكن تصنيف هذه الطوائف حسب أصول حكامها إلى ثلاث فئات رئيسية:

1 - الطوائف البربرية: وسيطروا على الجنوب، والوسط، وأقواهم بنو زيري، وهم بطن من البربر (القلقشندي، 1980، ص280)، في غرناطة، وبنو الأفطس بطن من البربر - على أثبت الأقوال- (المقري، 1997، 442/1)، في بطليوس، وبنو ذي النون، وهم بربر ينتمون لقبيلة هواره في طليطلة (عنان، 1997، 399/2، 400)

2 - الطوائف الصقلبية: وهم شعوب كانت تسكن جبال الأزال والبحر الأدرياتي في أوروبا الشرقية والوسطى (عباس، 1960، ص19)، وهم من الموالي، وسيطروا على شرق الأندلس، مثل: خيران الصقلي في ألمرية، وهو من موالي آل أبي عامر (ابن الخطيب، 2003، ص210-215)، ومجاهد من موالي المنصور بن أبي عامر، في دانية (الحميدي، 1966، ص352-355).

3 - الطوائف العربية الأندلسية: وسيطروا على الغرب، والوسط، وأبرزهم بنو عبّاد في إشبيلية، (المقري، 1997، 296/1)، وبنو هود في سرقسطة، (المراكشي، 2006، ص60، المقري، 1997، 441/1، 442).

فانقسمت الطوائف جغرافياً وفقاً للمناطق الرئيسية في الأندلس، معتمدة على سلالات عرقية مختلفة عربية، وبربرية، وصقلبية.

وهذا التنوع العرقي من عرب، وبربر، وصقالبة، ومولدين ساهم في تعزيز الاستقلالية الإقليمية، لكنه أدى إلى حروب داخلية مدمرة، ومؤلمة، إذ اتسمت العلاقات السياسية بين هذه الطوائف بالعداء المستمر والحروب، فاشتعلت الصراعات بين الطوائف، مثل: حرب مملكة إشبيلية ومملكة بطليوس عام (442هـ)، وبين مملكة إشبيلية وغرناطة عام (443هـ)، التي وصفت بأنها أفنت الرجال، وأخلت الديار، وكثر فيها القتل، والهزج، والسلب، وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية. (الشنتري، 1981، 34/3-37)

وتلقب كل رئيس لناحية بلقب الخلافة، كالناصر، والمعتمد، والمعتمد، وخطب كل ملك لنفسه على المنابر؛ لتعزيز شرعيته، مما أضعف شوكة الإسلام، وساهم في سقوط الأندلس.

وقد جسّد ابن حزم إحدى صور فساد حالهم بقوله: "اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه، وتلك فضيحة لم يُر مثلاً، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام يتسعى كل منهم بالخلافة، وإمارة المؤمنين". (ابن الخطيب، 2003، ص 142، 143).

فكان من أجلى سمات هذه الفترة في الجوانب السياسية انشغال ملوكها بالصراعات الداخلية، والاستعانة بالأعداء الخارجيين؛ مما تسبب في ضعف الجبهة الإسلامية، وتراجع الحدود الجغرافية أمام ممالك الشمال النصرانية. كما يُعد من أخطر ظواهر هذا العصر سعي ملوك الطوائف للقضاء على خصومهم المسلمين من ملوك الممالك الأخرى، وعدم تورعهم من الاستعانة بملوك النصارى، وفي مقابل هذه المساعدة المؤقتة فرض النصارى عليهم إتاوات سنوية باهظة عُرفت بالبارية (Parias)، التي أضعفت اقتصاد الأندلس، وأذلت حكامها، وتحول ملوك الطوائف عملياً إلى روافد اقتصادية، وسياسية لملوك النصارى، الذين كانوا يبتزونهم بالتهديد بالغزو إن تأخروا في الدفع، وبضاعفون عليهم الإتاوة كل عام. (عنان، 1997، 115/3).

ومن الأحداث المؤلمة الكبرى في ذلك العصر سقوط مدينة طليطلة؛ إذ كانت الثغر الأوسط، ودرع الأندلس القوية، لكن نتيجة لضعف حاكمها القادر بن ذي النون، وصراعاته مع جيرانه، ومساعدة الممالك الإسلامية الأخرى للنصارى، وعدم تدخلهم ضد النصارى؛ حاصرها ألفونسو السادس طويلاً حتى استسلمت وسقطت في يده، عام (478هـ)، الموافق (1085م). فكان سقوطها ضربة قاصمة هزت العالم الإسلامي، حيث كان أول سقوط لمدينة إسلامية كبرى في الأندلس، وبداية حقيقية لما عُرف في التاريخ الإسباني بمشروع الاسترداد النصراني. (عنان، 1997، 120/3 - 135)

المشهد الحضاري في عصر ملوك الطوائف:

رغم الانحسار، والضعف، والهزائم في ميادين السياسة في ذلك العصر إلا أن الأندلس عاشت نهضة فكرية، وعمرانية غير مسبوقة.

فقد شهدت عصرًا ذهبيًا للفكر، والأدب، والعلم في عصر ملوك الطوائف، كان من أسبابه التنافس الشديد بين ملوك الطوائف على اجتذاب العلماء، والأدباء لتعويض نقص شرعيتهم السياسية بالواجهة الثقافية، فتحوّلت عواصم الطوائف إلى مراكز إشعاع تنافس قرطبة وبغداد. (دوزي، 1964، 1/249، عنان، 1996، 115/2)

نهاية عصر ملوك الطوائف بالتدخل المرابطي:

بلغ الضعف ذروته بسقوط طليطلة بيد (ألفونسو السادس) بعد حصار طويل أمام أعين ملوك الطوائف، وأهل الأندلس (عنان، 1997، 2/72)؛ مما أحدث صدمة كبرى دفعت ملوك الطوائف، وبتأييد من علماء الأندلس للاستنجاد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، الذي عبر الأندلس، وألتقى جيوش النصارى في سهل الزلاقة، وانتصر عليهم انتصارًا عظيمًا عام (479هـ)، ذكّر المسلمين بذكرى انتصاراتهم في معارك الإسلام الكبرى، وعاد يوسف بن تاشفين بعد ذلك



إلى عدوة المغرب، لكن ملوك الطوائف عادوا إلى تفرقهم، واختلافهم، مما دفع المرابطين للعودة، وخلصهم جميعاً، وضم الأندلس لدولتهم بين عامي (483)، و(484هـ)، لينتهي بذلك عصر ملوك الطوائف، "ولله عزائم لا تقها الحصون، ولا يهتدي إليها الأرصاء والعيون، ولكل شيء أمد مكتوب، وميقات مضروب، ويبلغ الكتاب أجله". (الشتريني، 1981، 41/3)

المبحث الأول: العواصم الكبرى: البيئات الجغرافية، والمراكز الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف تُعد العلاقة بين الإنسان وبيئته الجغرافية الركيزة الأساسية لفهم أي منتج حضاري، وقد تنبه لهذه العلاقة الجدلية مبكراً العلامة ابن خلدون الحضرمي (ت808هـ)، إذ يربط في مقدمته بوضوح بين الإقليم الجغرافي وبين طبائع البشر، وصنائعهم، وهي نتاج الثقافة، معتبراً أن الخصائص الطبيعية للإقليم تترك بصمتها العميقة في أمزجة السكان، وأنماط معاشهم، فالإنسان ابن بيئته، يتشكل ويتأثر بمناخها وتضاريسها. (ابن خلدون، 1981، 109/1، 102).

وهذه العلاقة بين المكان والإنسان تتباعد عن مفهوم الحتمية البيئية، التي ترى أن الطبيعة تُملئ على الإنسان تصرفاته، إلى مفهوم الإمكانية، والتهيئة: إذ البيئة لا تصدر أوامر ملزمة، بل تقدم خيارات، وإمكانات متعددة، والإنسان هو الفاعل المؤثر الذي يستغل هذه الإمكانيات بفضل من الله عليه، وبذكائه، وفقاً لقدراته التقنية، والتنظيمية. (محمد بن الفراء، ص38، 39).

فبما فضل الله به بلاد الأندلس من الأنهار، والسهول، وجميل الأقاليم، واعتدال المناخ، قدمت للإنسان إمكانيات استغلها الأندلسي بذكاء، ومنحت له فرصاً لإنشاء دول مستقلة عُرفت بالطوائف، ولم تجربهم علمها، بل كانت أحد الخيارات البشرية في الجانب السياسي، الذي كان العامل الحاسم في تلك المرحلة.

فأصبحت الجغرافيا - بجبالها، وثغورها، وسهولها، وسواحلها - عاملاً مؤثراً في طبيعة الثقافة المنتجة، وفي نوعية العلوم المزدهرة، وطبيعة الخطاب السياسي، والأدبي.

وقد نظر العرب إلى المدينة في القديم والحديث على أنها المركز الحضاري الهام، وامتدت في بقاعهم التي فتحوها المراكز العلمية، والاقتصادية المترابطة، ف"حياة المدن تقليد قديم متوطن، وأصيل في العالم العربي، وحضارة العرب في جوهر كيانه حضارة مدن". (حمدان، 1996، ص25)

فلم تكن المدن الإسلامية مجرد مظهر من المظاهر الحضارية، بل كانت عاملاً ووحدة أساسية في تكوينها، ومكوناً يمكن من خلاله تحليل بنيتها، وعوامل قوتها، وتطورها، وأسباب سقوطها، وسيظهر لنا حين تناول تاريخ عواصم الأندلس طرفاً من التنوع الثقافي الذي له رابطة بالجغرافيا، والبيئية المؤثرة على ازدهار بعض العلوم والفنون.

وُعد عصر ملوك الطوائف - الممتد من عام (422هـ) إلى عام (484هـ)، أي: (62) عاماً تقريباً - نقطة تحول جذرية في تاريخ الأندلس، ليس فقط على المستوى السياسي الذي شهد تفتت الوحدة المركزية، بل على مستوى الجغرافيا الثقافية، فلم تعد الثقافة مخصصة لمركز واحد، بل تنوعت، وتعددت مراكز الثقل تبعاً لتعدد العواصم السياسية.

ويسعى هذا المبحث لاستجلاء دور العواصم الكبرى كبيئات جغرافية، وحاضنات ثقافية أعادت تشكيل المجال الثقافي الأندلسي في المطالب الآتية:

المطلب الأول: قرطبة وإشبيلية مركز الخلافة الأول، وبلاط الحكم الجديد الذي ينشد المركزية الثانية:

مثلت العلاقة بين قرطبة وإشبيلية في عصر الطوائف جدلاً وحراراً بين قوة الماضي القريب، وأخرى تهباً لحاضرها الطموح. فبينما ظلت قرطبة تحمل هالة الخلافة الأموية، ورمزيتها الروحية، والثقافية رغم فقدانها للسلطة السياسية المركزية، صعدت إشبيلية تحت حكم بني عباد لتصبح القوة السياسية والعسكرية الأبرز، طامحة لوراثة دور قرطبة، ليس بالقوة السياسية فحسب، بل بالقلم، والمجلس الأدبي، وسيظهر بعض تجليات ذلك فيما يأتي:



أولاً: قرطبة، وإرث الخلافة

رغم النكبات التي حلت بقرطبة جراء الفتنة البربرية، وانهيار الخلافة، إلا أنها بقيت في الوعي الجمعي الأندلسي موئل العلم، ومستودع التقاليد الثقافية الراسخة، ولم يستطع ملوك الطوائف تجاوز مركزية قرطبة، فظلوا ينظرون إليها كمعيار للشرعية والمجد، وسنستعرض أبرز ما تهيأ لقرطبة من أسباب التقدم، وما أثر على واقعها الثقافي كذلك في النقاط الآتية:

1 - الفتنة الكبرى، وأثرها في نقض غزل الأندلس

حافظ المتأخرون من أمراء الأندلس على استقدام قوات لجيشهم من البربر في عدوة المغرب، وكان لهم قوة وشوكة، وما إن مات آخر من تولى الدولة العامرية حتى بدأت الفتنة بين أمراء بني أمية، وكان للبربر من المستقدمين من خارج قرطبة والمستقرين فيها الأثر في تلك الأحداث، حتى انتهى الأمر بهم إلى الاستعانة ببعض ملوك النصراري، وضرهم الحصار على قرطبة من عام (401هـ) إلى عام (403هـ)، فأصاب الناس الجوع، وشدة الفاقة، ثم دخلوها فاستباحوا القتل، والفساد، في مشهد مؤلم أبقى في الذاكرة الأندلسية أماً حاضراً، ونسياناً لأيام المجد، والاستقرار، والأمن الماضية.

فكان من أحداث ذلك معركة جبل قنطيش عام (400هـ)، التي انتصر فيها البربر وحليفهم الكونت سانشو القشتالي على جيش أهل قرطبة، ودخلوا المدينة، ونهبوها، وعاثوا فيها فساداً. (الحميدي، 1966، ص 17، 18) وعاد البربر بعد ذلك بارتكابهم القتل والتدمير، فحاصروا قرطبة حصاراً طويلاً من عام (401هـ) إلى عام (403هـ)، فأدى إلى مجاعة مروعة، حتى أكل الناس الجيف، وانتهى الحصار باقتحام البربر للمدينة في شوال، عام (403هـ)، وارتكابهم مذبحه عظيمة عُرفت بوقعة (المصلى)، قُتل فيها الآلاف من أعيان قرطبة وعلمائها، ونُهبت الأموال، وانتهكت الحرمات، وسبيت النساء، والذرية، وخربت القصور، والدور، وعادت حاضرة الخلافة قاعاً صفصفاً كما وصف ذلك العديد من المؤرخين. (عنان، 1997، 29/2 - 35)

ولم تكن الفتنة مجرد صراع على السلطة، بل كانت عملية تفكيك لبنية الدولة، وانتهاء عهد الخلافة الجامع، ففرّ العلماء، والأدباء، والأعيان من قرطبة إلى الثغور، والمدن الأخرى، مما ساهم في نقل مركز الثقل الحضاري من العاصمة إلى المدن الأخرى، وهو ما مهد للازدهار الثقافي في عصر الطوائف.

كما استغل ولاة الأقاليم الأخرى من العامريين، والصقالبة، والبربر فراغ مركز الخلافة فأعلنوا استقلالهم الفعلي بمناطقهم لحفظ الأمن، فكانت تلك النواة الأولى لدول الطوائف. (ابن عذاري، 2012، 411/2 - 412) وسقطت الخلافة فعلياً، وخرج الملك من بني أمية حين قرر أهل قرطبة بقيادة أبي الحزم بن جهور إلغاء منصب الخلافة نهائياً عام (422هـ). (النويري، 2002، 439/23 - 440)، وإعلان إمارة مشيخة تدير الأمور، لتبدأ حقبة الطوائف. (عنان، 1997، 24-20/2).

فالفتنة البربرية كانت حدثاً مركزيّاً تكونت بعده خريطة الأندلس الجديدة المقسمة، وهي الدرس القاسي الذي أثبت أن الاستعانة بالعصبيات القبلية، كالبربر دون دمجهم في المجتمع، والاعتماد على القوى الخارجية من النصراري في الصراع الداخلي، يؤدي حتماً إلى زوال الدول.

2 - استمرارية التقاليد الأدبية في قرطبة

حافظت قرطبة تحت حكم بني جهور الذين وصف حكمهم بأنه حكم مشيخي يتسم بالرزانة، على تقاليد المدرسة الشعرية، فكان شاعر الأندلس ابن زيدون أبرز من جسّد هذه الحالة الانتقالية؛ فقد نشأ في قرطبة، ونهل من ثقافتها قبل أن ينتقل لاحقاً إلى إشبيلية. (عنان، 1997، 24-20/2).

وبقي الشعر القرطبي في تلك المرحلة متميزاً بالقوة، والعلو، وظل شعراؤها يكتبون بحسرة عن الزمن الماضي، وينشدون عن رثاء الحواضر، وهو ما يُعرف برثاء المدن، الذي ازدهر كرد فعل على الخراب المادي بشكل أكبر فيما بعد. ورغم فقدان قرطبة لمركز السلطة، فقد ظلت تحتفظ بروحها القديمة التقليدية، وكان أبو الحزم بن جهور حريصاً على ترميم ما أفسدته الحرب، ليس فقط في المباني، بل في النفوس، مما أبقى جذوة الأدب مشتعلة، ولو بنبرة حزينة. (دوزي، 1964، 15/3 - 18)،

3- المجالس العلمية والفقهية في جامع قرطبة

تميزت قرطبة عن غيرها بسيادة الجو الفقهي، والعلمي الرصين، بحكم وجود كبار الفقهاء الذين ورثوا مقاعد التدريس في الجامع الكبير؛ فكانت بيتها أقل صحياً ومجوعاً من البيئات الناشئة كإشبيلية، وسرقسطة، وأكثر ميلاً للتدوين التاريخي، والعلوم الشرعية، فبرز الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، الإمام، الفقيه الظاهري (ابن العماد، 1986، 37/1، 38)، الذي اشتهر بمنظراته العلمية، ومدوناته الفقهية، ورسائله عن الأندلس، وفضائلها، وتاريخها، وبرز فيها - أيضاً - المؤرخ أبو مروان حيان بن خلف ابن حيان القرطبي، (ت469هـ) (ابن بشكوال، 1955، 150/1)، الذي يُعد ذاكرة الأندلس ومؤرخها (الذهبي، 1985، 405/18)، فقد جسّد في نثره السياسي والتاريخي قمة البلاغة، والنقد الشديد لملوك الطوائف، معتبراً إياهم سبباً في ضياع الإرث الأموي الجامع. (عنان، 1997، 31/2).

والمعطيات السابقة تبرز أن الفتنة البربرية وما صاحبها من حصار ودمار لقرطبة أدت إلى تفكيك المركز السياسي والعلمي، فنتج عنها نزوح العلماء والأدباء نحو حواضر أخرى، مما أعاد توزيع الثقل الثقافي جغرافياً، ومهد لظهور مراكز جديدة في عصر الطوائف.

وفي المقابل حافظت قرطبة - بحكم مكانتها التاريخية وبيتها العلمية - على وظيفة "حاضنة الذاكرة"؛ إذ وجّهت ظروف الخراب إنتاجها الثقافي نحو رثاء المدن، والعلوم الشرعية، والتدوين التاريخي، بما يعكس علاقة مباشرة بين طبيعة المجال الجغرافي المضطرب ونمط الإنتاج الثقافي المحافظ.

ثانياً: إشبيلية، وطموح البلاط العبادي وإعادة تشكيل المجال الثقافي:

على النقيض من وقار قرطبة كانت إشبيلية تموج بالحياة، والحركة، والطموح الملكي الجديد تحت حكم بني عبّاد: المعتضد، (ت464هـ)، ثم ابنه المعتمد (488هـ)، (المراكشي، 2006، ص76 - 80)، وتحولت إشبيلية بفضل موقعها الجغرافي على نهر الوادي الكبير، وثروتها الاقتصادية إلى المركز الأهم للأدب، والفنون، مستقطبة الأدباء من كل حذب وصوب، وخاصة أولئك الفارين من قرطبة المضطربة، ويظهر بعض تجليات ذلك فيما يأتي:

1- الشعر كأداة سياسية وسلاح دعائي:

ففي بلاط إشبيلية لم يكن الشعر مجرد ترف، بل كان أداة سياسية فاعلة، فقد استخدم المعتضد، ثم ابنه المعتمد الشعر لتمجيد انتصاراتهم، وهجاء خصومهم، وإضفاء شرعية الخلافة الوريثة لحكم بني أمية على حكمهم.

فكان لأهل الأدب في عهد المعتضد بالله عباد بن محمد سوق نافقة، وله في ذلك همة عالية، بل كان هو من أهل الأدب البار، والشعر الرائق، أما المعتمد بن عباد فلم يكن مجرد راعٍ للشعر، بل كان شاعراً فحلاً، جعل من بلاطه نادياً أدبياً مفتوحاً، وتحول الشعر في عهده من النمط التقليدي إلى أشكال أكثر رقة، وعذوبة، مع ازدهار شعر الغزل، والموشحات، متأثراً بطبيعة إشبيلية الغناء، وحياة الترف. (ابن عذارى، 2012، 502/2)

كما كان لانتقال الشاعر ابن زيدون إلى إشبيلية، وتوليهِ الوزارة لبني عباد رمزية لانتقال الثقل الثقافي إليها، ففي إشبيلية، تحول قلمه من الشكوى القرطبية إلى مدح دولة بني عباد، وصاغ الرسائل السياسية البليغة التي كانت تُرسل



للملوك الآخرين؛ لترهيبهم أو استمالتهم، فنشأت طبقة من الكتّاب، والوزراء الذين يجمعون بين البلاغة، والسياسة. (عنان، 1997، 53/2، 54)

2 - النثر الفني والرسائل الديوانية:

تطور النثر السياسي في إشبيلية ليصبح فنًا قائمًا بذاته، عموده الرسائل الديوانية الصادرة عن بلاط المعتمد، بأقلام كتّاب، مثل: ابن زيدون، وابن اللبانة، تمثل ذروة النثر الأندلسي، حيث مزجت بين الدقة الدبلوماسية والسجع الفني البديع، وكان الهدف هو إبهار المتلقي، وإظهار عظمة دولة بني عبّاد كوريثة شرعية لمجد الأندلس.

3 - مجالس قصر إشبيلية الأدبية:

اشتهرت إشبيلية بمجالسها التي غيرت الأنماط التقليدية، فيتحدث المؤرخون عن مجالس المعتمد التي كانت تجمع بين الوزراء، والشعراء، والجواري المغنيات، مثل: اعتماد الرميكية (ت488هـ)، (الزركلي، 1/334)، وكانت هذه المجالس مختبرات ثقافية، ولدت فيها ألوان جديدة من الأدب، وتميزت بالسرعة، والبديهة في نظم الشعر، مما ساهم في شيوع ثقافة أدبية شعبية في آن واحد. (مؤنس، 1995، 377/2).

ف"الأدب والشعر من محاسن الأسرة العبادية، ومآثرها العريقة، فقد نبغ معظم رجالها في النثر، والنظم، ولم تكن براعة المعتضد في الشعر إلا قبسًا من تراث أسرته؛ ولقد بلغ ولده المعتمد، فيما بعد في عالم الشعر أسى مراتبه، وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصره". (عنان، 1997، 56/2).

وتُظهر هذه المعطيات أن الموقع الجغرافي لإشبيلية على نهر الوادي الكبير، وما أتاحه من ثراء اقتصادي وانفتاح، أسهم في تحويلها إلى قطب جذب ثقافي، استقطب نخب قرطبة المهاجرة، فنتج عن ذلك انتقال مركز الثقل الثقافي من مدينة ذات تراث علمي راسخ إلى مدينة ديناميكية توظف الثقافة في خدمة مشروعها السياسي.

كما يكشف التحليل أن التنافس الجغرافي - السياسي بين مراكز الطوائف أفرز تخصصًا وظيفيًا للمدن؛ فقرطبة حافظت على (ثقافة الذاكرة) والمعايير الكلاسيكية، بينما أنتجت إشبيلية "ثقافة الابتكار" المرتبطة بالبلاط والدعاية، مما يبرهن على أن تباين البيئات المكانية كان عاملاً مباشرًا في تنوع أنماط الإنتاج الثقافي وإعادة تشكيل الهوية الثقافية الأندلسية.

المطلب الثاني: غرناطة بني زيري، وبطليوس بني الأفطس ووجودهم البربري في الثقافة والسياسة:

شكّل الوجود البربري في عصر الطوائف ظاهرة سياسية، وثقافية معقدة، فبينما كان يُنظر للبربر في ذاكرة أهل الأندلس بأنهم قوة عسكرية خشنّة، -خاصة في كتابات أهل قرطبة-، سعت العواصم التي حكمها أسر بربرية إلى كسر هذه الصورة النمطية عبر دمج العصبية القبلية بالثقافة العربية؛ في محاولة لإضفاء تمام الشرعية لحكمهم أمام الرعية الأندلسية المتمسكة بالثقافة العربية، وستحدث عن تجليات ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: غرناطة بني زيري: بين خشونة الجند ورقة الأدب:

أسس بنو زيري من قبيلة صنهاجة من البربر مملكة قوية في غرناطة، تميزت في بدايتها بالطابع العسكري الصرف، والانغلاق القبلي، لكن سرعان ما خضعت هذه العصبية لسطوة الثقافة الأندلسية. (دوزي، 1964، 40/3 - 45).

ويُعد الأمير عبد الله بن بلقين بن حبوس (ابن الخطيب، 2003، 289/3 - 291) - آخر ملوك غرناطة - أنموذجاً لهذا التحول؛ فقد ترك مذكراته الشهيرة "التبيان"، التي لا تُعد وثيقة سياسية فحسب، بل نصّاً أدبياً رفيعاً يكشف عن ثقافة واسعة، ومعرفة دقيقة بالتاريخ، والفقه، وقد تحولت غرناطة في عهده إلى حاضرة تجمع بين التحصين العسكري كونها مدينة



جبلية، وبين الانفتاح الثقافي، حيث قرب الزيريون العلماء اليهود للاستفادة من مهاراتهم الإدارية، واللغوية، مما خلق بيئة ثقافية متعددة الروافد وإن كانت مشوبة بالتوترات. (عنان، 1997، 125/2 – 130).

ثانياً: بطليوس بني الأفطس: البربر المستعربون، والموسوعية الأدبية العربية:

على خلاف حكم بني زيري لغرناطة كان بنو الأفطس - من قبيلة مكناسة - في بطليوس أكثر تعمقاً في الثقافة العربية منذ بدايتهم.

فقد أسسوا دولتهم على تخوم الغرب بالثغر الأدنى، وواجهوا تحديات عسكرية جمّة ضد النصارى، لكنهم جعلوا من بلاطهم منافساً لبلاط إشبيلية في الأدب، حتى مثلت بطليوس نموذجاً للبربر المستعربين الذين تبناوا اللغة العربية ثقافة، وهوية، حتى نافس ملوكهم كبار الأدباء في التأليف، والنظم، كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن المظفري (ت461هـ)، (السنتريني، 1981، 640/4 - 641)

وهكذا ينكشف لنا كيف تحوّل الوجود البربري من عصبية سياسية إلى رعاية ثقافية عربية راقية، وعن تميزهم في العلوم العربية، فرغم انشغال بطليوس بالحروب المستمرة، إلا أنها شهدت أضخم مشروع موسوعي في عصر الطوائف، وهو كتاب المظفري الذي ألفه الملك أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي، المشهور بالمظفر بن الأفطس، ويقع الكتاب في خمسين مجلداً، وقيل: مئة، جمع فيه شتات الأدب، والتاريخ، والحروب والفنون، محاكياً به كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، (ت356هـ)، ولكن بإشراف أندلسية.

ورغم ضياع هذا الكتاب فإنه يمثل دليلاً قاطعاً على المستوى الرفيع الذي وصل إليه ملوك الطوائف في التحصيل العلمي، حيث لم تمنعهم "أعباء السيف من حمل القلم". (عنان، 1997، 325/2 - 326)

فكانت بطليوس بذلك واحة للأدب الرصين، والموسوعي، متميزة عن الأدب الذي يهتم بالغزل والموشحات السائد في إشبيلية.

وتكشف هذه المعطيات أن الخصائص الجغرافية والسياسية لكلٍّ من غرناطة وبتليوس أسهمت في تشكيل نمطٍ مميز من الإنتاج الثقافي؛ فغرناطة بحصانها الجبلية وبنيتها العسكرية دفعت نحو مزيج بين الصرامة السياسية والانفتاح الثقافي، مما أفرز أدباً ذا طابع تأملي تاريخي متعدد الروافد، يعكس محاولة النخبة البربرية اكتساب الشرعية عبر التثاقف. أما بطليوس، بحكم موقعها الحدودي وضغط المواجهة العسكرية، فقد وجّهت طاقتها نحو بناء مشروع ثقافي موسوعي يعزز الهوية ويثبت الحضور الحضاري، مما يبيّن أن التحديات الجغرافية والعسكرية كانت دافعاً مباشراً لتبني الثقافة العربية وإنتاج أنماط علمية وأدبية رصينة تختلف عن مراكز الترف كإشبيلية.

المطلب الثالث: طليطلة وسرقسطة جغرافيا الثغور، المهتمة بالعلوم العقلية:

اختصت مدن الثغور الشمالية، والوسطى بخصائص ثقافية نابغة من موقعها الجيوسياسي المتاخم للممالك النصرانية.

فقد فرضت حالة الرباط، والمواجهة للأعداء في الشمال نوعاً من الانفتاح الضروري على الآخر، مما جعل هذه العواصم خاصة طليطلة، وسرقسطة مراكز رائدة للعلوم العقلية، والترجمة، بعيداً عن سلطة الفقهاء التي سادت في الجنوب، وظهر ذلك فيما يأتي:



أولاً: مدينة طليطلة، حاضرة العلوم العقلية:

كانت طليطلة تحت حكم بني ذي النون، -خاصة المأمون يحيى بن ذي النون (ت467هـ)، (ابن عذاري، 2012، 496/2 - 499)، وقد تحولت إلى قبلة لعلماء الفلك، والرياضيات، والنبات، ويذكر المؤرخون أن المأمون كان شغوفاً بالعلوم القديمة، فكانت طليطلة رائدة في الحراك العلمي، حتى وصفت بأنها مركز الرصد، والبحث العلمي. (صاعد، 1985، ص80)

فلم تكن طليطلة مجرد ثغرٍ عسكري، بل كانت جسراً عبرت منه علوم العرب إلى أوروبا، حيث بدأت حركة الترجمة بالنشاط فيها حتى قبل سقوطها، واستفادت من الوجود المستعرب من النصارى واليهود، الذين أجادوا اللسانين، وكان لهم دور الوسيط اللغوي.

فحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في طليطلة لم تبدأ فجأة وبشكل كبير، بعد سقوط المدينة بيد النصارى عام (478هـ)، بل كانت هناك بدايات أولية، ومحاولات مبكرة للترجمة، والتفاعل الثقافي حدثت أثناء الحكم الإسلامي للمدينة، خصوصاً في العلوم العقلية، والطب، والفلك، وهي التي مهدت الطريق لاحقاً لظهور مدرسة طليطلة للمترجمين الشهيرة في أوروبا بعد سقوط المدينة، التي تطورت، ونضجت لتنقل علوم المسلمين إلى الغرب.

وكان لسقوط مدينة طليطلة "واسطة السلك، وأشمخ ذرى الملك بهذه الجزيرة"، (الشنتريني، 1981، 92/5) الأثر الكبير في نفوس أهل الأندلس، فقد كانت من أكبر ممالك الأندلس، وأعرقها، وأقواها تحصيناً، وهو ما كشف شدة ضعف ملوك الطوائف أمام العدو الخارجي.

ثانياً: مدينة سرقسطة، والاهتمام بعلوم الرياضيات والفلسفة في (دار السرور):

في الثغر الأعلى - من الأندلس - أسس بنو هود دولة جمعت بين البراعة العسكرية والنبوغ الفلسفي، فكان ملوك بني هود، كالمقتدر، والمؤتمن علماء في الرياضيات، والفلك، فقد بنى المقتدر قصر الجعفرية الذي يعكس ترف العمارة، وهندستها الدقيقة. (عنان، 1997، 283/2).

ولم يمنع الاضطراب السياسي هذه الحواضر من العناية بالعلوم؛ فقد نبغ في سرقسطة فلاسفة، وعلماء منهم: أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة (ت533هـ) (ابن أبي أصيبعة، ص515 - 517)، مما جعلها الوريث الحقيقي لعلوم الحكمة التي خبت جذوتها في قرطبة. (علي، 1923، ص45 - 48).

ونظراً لموقع سرقسطة في الشمال الشرقي المتاخم للعدو فقد ازدهرت فيها ثقافة المناظرة والجدل، كما يظهر في مناظرة أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت474هـ) مع الراهب الفرنسي، ونشأت فيها طبقة من الكتاب الذين يجمعون بين البلاغة، والسياسة، لخدمة المواجهة مع الممالك النصرانية.

فكانت سرقسطة نقطة عبور للعلوم القادمة من الشرق، مشحونة بروح الدفاع، والمواجهة.

فهذه المعطيات تكشف أن الموقع الجغرافي لمدن الثغور كطليطلة وسرقسطة، بوصفها مناطق تماس حضاري وعسكري مع الممالك النصرانية، أسهم في توجيه إنتاجها الثقافي نحو العلوم العقلية والترجمة، نتيجة الحاجة إلى الفهم، والتفاعل، والمواجهة، مما خلق بيئة علمية منفتحة متعددة اللغات والمرجعيات.

كما يكشف التحليل أن ضغط الجبهة العسكرية، وغياب الهيمنة الفقهية الصارمة مقارنة بالجنوب، أتاح نشوء ثقافة عقلية جدلية قائمة على الفلسفة، والرياضيات، والمناظرة، فعدت هذه الحواضر جسوراً لنقل المعرفة، وأمثلة على تأثير الجغرافيا الحدودية في تشكيل نمط ثقافي علمي مختلف.



المطلب الرابع: المراكز الشرقية والجنوبية في ألمرية، ودانية، والاهتمام بالتخصص العلمي للأطراف: في ظل تفتت المركزية تخصصت بعض عواصم الأطراف في حقول معرفية محددة، مستفيدة من ميول حكامها العلمية أو السياسية أو موقعها الجغرافي، مما أثرى المكتبة الأندلسية بمصنفات نوعية، وسنستعرض ذلك فيما يأتي:

أولاً: دانية والجزائر الشرقية، والاهتمام بمدرسة القراءات وعلوم القرآن:

أسس أبو الجيش مجاهد العامري، (ت436هـ) وهو من الصقالبة دولة بحرية قوية في دانية والجزائر الشرقية، ورغم أصوله الأعجمية فقد كان عالماً باللغة، شغوفاً باقتناء الكتب، وحول عاصمته إلى مركز عالمي لعلوم القرآن والقراءات، واستقطب مجاهد الإمام الحافظ أبا عمرو عثمان بن سعيد الداني، (ت444هـ) (ابن بشكوال، 1955، ص 385 - 387) صاحب كتاب (التيسير في القراءات السبع)، فكان له الأثر الكبير في نشر علم القراءات بدانية، حتى أضحي يرحل إليها الطلبة من كل صقع للأخذ عن الداني رحمه الله، وأصبحت أسانيد القراءات الأندلسية تمر عبر هذه الحاضرة البحرية. (رستم، 2008، ص 15 - 20، عنان، 1997، 195/2 - 198)

فلم تكن دانية سوقاً للتجارة فحسب، بل كانت إلى جانب ذلك سوقاً لتعلم القرآن وعلومه، مما يعكس تنوع الجغرافيا الثقافية للأندلس حيث يجتمع الأسطول البحري مع حلقات التحفيظ.

ثانياً: مركز ألمرية، ميناء العلم والتجارة

كانت ألمرية مدينة ساحلية مزدهرة، ومركزاً للتجارة البحرية، مما جعلها منفتحة على الشرق الإسلامي، وازدهرت فيها الصناعات، ومنها صناعة الورق، التي ساعدت على انتشار الكتب، كما نشأت فيها حركة علمية مرتبطة بالفقه، واللغة. فجغرافيا العواصم الكبرى في عصر ملوك كانت عاملاً فاعلاً في تشكيل الثقافة، فقرطبة حافظت على إرث الخلافة، وإشبيلية صنعت مجدها الأدبي، وغرناطة وبطليوس قدّمتا نموذجاً بربرياً مثقماً عربي اللسان، وطليلة وسرقسطة صنعتا ثقافة الثغور، بينما كان لألمرية ودانية في الأطراف المركز الذي اهتم بالعلم والتخصص، وخصوصاً علوم القرآن. وهذا تتضح صورة الجغرافيا الثقافية للأندلس، وخرائطها من المراكز المتنافسة، التي أنتجت واحدة من أغنى التجارب الحضارية في التاريخ الإسلامي.

وهكذا تكشف المعطيات السابقة أن موقع دانية وألمرية، واتصالهما بشبكات التجارة والاتصال بالشرق، أسهم في توجيه نشاطهما الثقافي نحو التخصص العلمي؛ فدانية تحولت إلى مركز لعلوم القرآن بفعل رعاية سياسية واعية واستقطاب العلماء، بينما دعمت ألمرية بحيويتها الاقتصادية وصناعة الورق انتشار المعرفة وتكثيف الإنتاج العلمي.

كما يبرز التحليل أن تفتت السلطة المركزية أفرز توزيعاً وظيفياً للمراكز الثقافية، حيث اتجهت الأطراف إلى التخصص لتعزيز مكانتها، مما يدل على أن التنوع الجغرافي والاقتصادي كان عاملاً مباشراً في إثراء الحقول المعرفية وتكامل الخريطة الثقافية للأندلس.

المبحث الثاني: آليات التواصل الثقافي عبر الجغرافيا الأندلسية:

رغم التمزق السياسي الذي وسم عصر ملوك الطوائف، وتفتت الأندلس إلى كيانات جغرافية متناحرة، إلا أن الوحدة الثقافية ظلت هي الحصن الباقي الذي لم تتصدع جدرانها، وقد لعبت عدة آليات تواصلية دوراً حاسماً في تجاوز الحدود السياسية المصطنعة، وخلق فضاء أندلسي موحد فكرياً وشعورياً، ويستعرض هذا المبحث حركة العلماء، وسلطة الأدب، واللغة، وصورة المكان، كأدوات للربط بين أطراف الجسد الأندلسي.



ففي هذا المبحث نتناول أداة التبادل الحضاري في الأندلس في عصر دول الطوائف، وكيف تحول المجال الجغرافي من حيز مكاني إلى فضاء للتفاعل الفكري، والاجتماعي، سواء من خلال حركة العلماء، وهجرتهم، أو التدوين الجغرافي، أو تأثير اللغة كوعاء جامع للهوية، وفي المطالب الآتية يظهر لنا بعض أوجه التواصل الثقافي:

المطلب الأول: الرحلة العلمية والإصلاحية للعلماء:

لم يعترف العلماء بالحدود السياسية التي رسمها ملوك الطوائف؛ فكانت الرحلة في طلب العلم الداخلية والخارجية بمثابة الشريان الذي يضخ الدماء في كافة الأقاليم، مما منع عزلة الحواضر ثقافياً.

فقد مثلت الرحلة العلمية الرابط الأقوى بين الأندلس وخارجها في المشرق، حيث لم تقتصر على نقل الرواية، بل تجاوزت ذلك إلى نقل المناهج العقلية، والأصولية.

فكانت الرحلة أحد أبرز آليات الاتصال المعرفي، فالسفر إلى المشرق للحج، وطلب العلم تقليد راسخ لدى علماء الأندلس، مما ساهم في كسر العزلة الجغرافية لشبه الجزيرة الإيبيرية، فكانت الرحلة وسيلة العلماء لربط الأندلس بمركز الثقل الإسلامي في المشرق البعيد أو بين أقاليم الأندلس المتعددة، ومرحلة لتجديد الدماء في الكيان الفقهي المالكي، ومن أشهر علماء الأندلس المشهورين بذلك: الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت474هـ) (القاضي عياض، 1968، 802/4 - 804) العالم المصلح بين ممالك الأندلس (جاسم، وموسى، 2008، ص363، 364).

فقد برز الإمام أبو الوليد الباجي كعالم، وفقه مالكي من كبار علماء الأندلس، وحين حدثت الفتن، والفرقة، والافتتال بين ممالك الأندلس، اجتهد الإمام في الإصلاح بين أمراء الطوائف، وفي نصح الرعية، فكان مع مكانته في العلم، والفقهاء مصلحاً اجتماعياً وفكرياً عبر رحلاته بين أقاليم الأندلس، وكان لشخصيته، ورحلاته الدافع المؤثر في السير في مسار الإصلاح، ومحاولة جمع الكلمة، وسنستعرض جوانب من ذلك، فيما يأتي:

1 - مسار الرحلة وأثرها في تكوينه الشخصي:

فقد قضى الإمام الباجي ثلاثة عشر عاماً، من عام (426هـ) هـ عام (439هـ) متنقلاً بين الحجاز، والشام، والعراق، وتعلم في بغداد على يد القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري (ت450هـ)، وأتقن علم الكلام والجدل الذي كان نادراً في الأندلس (السبكي، 1992، 12/5 - 46، 65 - 72).

ولما عاد من رحلته المشرقية الطويلة، عاين بلده الأندلس وقد مزقه الخلاف السياسي المؤلم، ورأى نفوس المسلمين متفرقة، وكلمتهم مشتتة، فعمل على تأليفها في سفارته بين الملوك للتصدي للعدوان النصراني خاصة بعد حصار طليطلة، وإرهاصات سقوطها، وما خلفه من دعر، وخوف، وأثار بالغة على وحدة الأندلس، وقوتها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ووجوب الاستنصار بجيش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين لمواجهة الخطر النصراني المترصص، وقد توفي أبو الوليد الباجي عام (474هـ)، قبل تمام غرضه برؤية النصر الكبير للمسلمين على جيوش النصراني مجتمعة في معركة الزلاقة عام (479هـ)، وإن كان له سهم الفضل في المسعى والجهد المبذول في سبيل الوحدة، وتحقيق النصر للمسلمين، فمات -رحمه الله - مجاهدًا بلسانه، وسعيه قبل تمام غرضه. (المراكشي، 2006، ص195 - 200)

2 - تأكيد توحيد المرجعية المالكية في الفقه والفتوى، ومواجهة الجمود والتقليد:

فقد عاد الباجي بمنهجية أصولية جديدة تهدف إلى ضبط الفقه المالكي بالأدلة، في مواجهة تيارين: جمود بعض المالكية، والنزعة الظاهرية التي قادها الإمام ابن حزم في الأندلس، وناظر عنها، فكانت له مناظرات ومجالس علم مع الإمام ابن حزم، التي كانت صراعاً بين منهجين انتهى بانتصار المدرسة الأصولية التي يمثلها الباجي، وانتصار حكام أقاليم الأندلس لذلك، مما ساهم في استقرار المذهب المالكي، وتوحيد المرجعية الشرعية في الأندلس. (عنان، 1997: 105/2)



المطلب الثاني: أدب الرسائل كسلطة عابرة للحدود الجديدة:

لم تكن الرسائل الديوانية أو الإخوانية حبيسة بلاط واحد، بل كانت منشورات عامة تُقرأ في مجالس الأدب عبر الأندلس، فرسانل ابن زيدون - من قرطبة ثم إشبيلية - ورسائل ابن حزم، كانت تعبر الحدود لتصل إلى خصومهم أو محبيهم في الإمارات الأخرى.

وهذا التبادل للرسائل خلق جغرافية أدبية موحدة؛ فالحدث الذي يقع في إشبيلية كان يتردد صدها فوراً في بطليوس أو غرناطة عبر الرسائل المتبادلة، مما جعل الأندلسيين يعيشون في فضاء ذهني واحد، رغم اختلاف الحكام، والمدن. فكانت الرسائل الديوانية التي يكتبها الكتاب كابن زيدون، تنتشر وتُقرأ في بلاطات متعددة، متجاوزة حدود الإمارة التي صدرت منها، لتشكل ما يشبه نمطاً أدبياً يحفظه الناس، لجمال كلماته، وتعالیه في مقام الأدب عابراً بذلك الحدود الجغرافية. (عباس، 1978، ص55)

وكان من موضوعات تلك الرسائل: تفضيل المدن والممالك بالوصف الجغرافي، فتحول الأدب في حقول النثر الفني والرسائل إلى وسيلة اتصال عابرة للحدود السياسية الممزقة في عصر الطوائف، وأداة للتعريف بالجغرافيا الأندلسية، وبيان فضلها على غيرها.

ونشطت حركة تدوين فضائل البلدان، حيث تبارى أهل كل مدينة في إبراز محاسن جغرافيتهم وعلمائهم - مثل ما كتبه الرازي، وابن حيان- وهذه المدونات لم تكن مجرد وصف طبوغرافي، بل كانت تأسيساً ثقافياً للمكان. فتحول الصراع السياسي إلى صراع أدبي يعتمد في ذلك على المكان، فنرى رسائل كرسالة الشقندي في القرن السابع الهجري، التي عددت محاسن المدن الأندلسية نهراً نهراً، ومدينة مدينة، لتثبت تفوق الأندلس الجغرافي والحضاري على العدو المغربية والمشرق، ورداً على من فضل الأخير، وقال عنه: "رام أن يفضل بر العدو على بر الأندلس، فرام أن يفضل على اليمين اليسار، ويقول الليل أضوأ من النهار، فيا عجيباً كيف قابل العوالي بالزجاج، وصادم الصفاة بالزجاج، فيا من نفخ في غير ضرم، ورام صيد البزاة بالرخم، كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً، وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلاً، ما هذه المباهتة التي لا تجوز وكيف". (ابن حزم، وابن سعيد، والشقندي، 1968، ص29 - 60).

المطلب الثالث: اللغة والهوية المشتركة في مواجهة الآخر:

مع تصاعد ضغط الممالك المسيحية من الشمال، وتزايد النفوذ البربري، والصقلي في الداخل، أصبحت اللغة العربية هي الحصن الأخير للهوية الأندلسية الجامعة. فقد شكلت اللغة العربية الفضاء الرمزي الذي انصهرت فيه مختلف المكونات الاجتماعية، والعرقية في الأندلس، وسيظهر لنا ذلك في النقاط الآتية:

1 - مرجعية اللغة العربية كوعاء جامع للثقافة:

لقد انتشرت اللغة العربية في الأندلس انتشاراً واسعاً شمل جميع طبقات المجتمع، ولم تعد حكراً على العرب أو البربر المسلمين، بل أصبحت لغة الثقافة، والعلم الأولى بالأندلس، مما أوجد وحدة ثقافية لم تتأثر حتى مع تفكك الأندلس ونزاعاتها. (الفضلي، 2015، ص45 - 50)

2 - الدور الثقافي الرائد للمستعربين:

فحين فتح العرب المسلمون الأندلس أقبل النصارى، واليهود المعاهدون على تعلم العربية بشغف، لدرجة أنهم تحولوا لكتابة رسائلهم وقصائدهم بلغة عربية فصحي، وأهملوا اللغة اللاتينية، كما لاحظ ذلك بعض الفسائسة - بتأسف وحنن - أن هذا الاندماج اللغوي جعلهم جزءاً أصيلاً من النسيج الاجتماعي الأندلسي. (هونكه، 2010، ص437)



وكان اللغة وطن بديل في ظل ضياع النغور، فيتمسك الأندلسيون بفصاحة اللسان كدليل على الانتماء، ورغم التنوع العرقي - عرب، بربر، صقالبة، مولدون-، فقد انصهرت هذه الأعراق في باحة الثقافة العربية، حتى في غرناطة - التي حكمها بنو زيري البربر-، فكانت اللغة العربية هي لغة الدواوين، والأدب، وبرع الأمراء البربر في تدوين مذكراتهم بعربية سليمة، مما يشير إلى سطوة الجغرافيا الثقافية العربية على العصبية القبلية.

3- تفعيل الحسبة:

فمن أجل ضبط هوية المجتمع قامت مؤسسة الحسبة بدور مهم في تنظيم هذا التفاعل الاجتماعي في الأسواق، والشوارع، لضمان التعايش وفق ضوابط الشرع، مع مراعاة حقوق أهل الذمة في معاملاتهم. (حسين، 2012، ص115) فكان من أوجه الحسبة: منع الضرر، وحماية الطريق، فتضمنت صلاحيات المحتسب إزالة العوائق من الطرقات، ومنع أصحاب الحوانيت من التعدي على مساحة المارة، وكذلك مراقبة الدواب، وتحديد حملتها لئلا تُرثق أو تؤذي السابلة، وهو ما يؤكد شمولية نظرة الحسبة للأمن المجتمعي وسلامة الفضاء العام. (حسين، 2012، ص33-37).

ولما اتسم المجتمع الأندلسي به من التعددية، فقد كان للحسبة دور بارز في تنظيم حدود التعامل بين المسلمين وأهل الذمة في الأماكن المشتركة، موازنةً بين تطبيق أحكام الشريعة، وحفظ حقوق الذميين، فقد وفرت الحسبة حماية لأهل الذمة من أي تعسف قد يطالهم في الأسواق، فكان المحتسب يتصدى لمن يظلمهم أو يبخسهم حقوقهم المالية، انطلاقاً من مبدأ: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) في المعاملات الدنيوية، مما ساهم في استقرارهم، ومشاركتهم الفعالة في النشاط الاقتصادي. (حسين، 2012، ص45)

المطلب الرابع: المدونات التي كتبت عن صورة المدن الأندلسية وجغرافيتها التي خلدها أهل الأندلس، والرحالة الذين وفدوا عليها:

لقد تشكلت في الخيال الأندلسي خريطة ذهنية للمدن، ليس بناءً على مساحتها، بل بناءً على ثقلها الثقافي وجمالياتها التي خلدها الرحالة، والمؤلفون.

وشكلت العمارة وتنظيم المدن الأندلسية العنصر الأبرز الذي استرعى انتباه الرحالة، والجغرافيين، فكانت صورة حضارية مبهرة للأندلس، أورثت ألباً على التفريط في الحفاظ عليها، ومن تلك المشاهد التي تناولتها سطور الكتاب، والرحالة إلى الأندلس جماليات العمران في قرطبة والزهراء، فقد أصبحت المنشآت العمرانية معالم جغرافية يتناقل أخبارها الناس، فالمسجد الجامع بقرطبة لم يكن مجرد مكان للعبادة، بل كان جامعة ومجلساً للقضاء، وتميزت هندسته بالتجديدات المستمرة التي قام بها الأمراء الأمويون الأوائل، مما جعله آية في الفن المعماري، تضاهي مساجد الشرق. (سالم، 1986، ص35 - 45)

أما مدينة الزهراء، فقد وصفها الجغرافيون بأنها درة التاج الأندلسي، حيث انهروا بدقة هندستها، وتنوع مواد بنائها المستجلبة من أقطار شتى، مما جعل زيارتها، وتدوين أوصافها جزءاً من أدب الرحلة، والجغرافيا. (سالم، 1986، ص85 - 90)

وقد تمثل عبد الرحمن الناصر - مجدد ملك الأندلس - (ت350هـ) (الصفدي، 2000، 138/18)، والحاكم القوي له حين بنى مدينة الزهراء البديعة بقوله:

همم المُلوك إذا أزدادوا ذكرها ... من بعدهم فبالسن النبيان
إن البناء إذا تعاضم شأنه ... أضحي يدل على عظيم الشأن

(الصفدي، 2000، 138/18)



المبحث الثالث: خصائص الجغرافيا الثقافية للأندلس والتحديات التي واجهتها في عصر ملوك الطوائف:

المطلب الأول: خصائص الجغرافيا الثقافية للأندلس:

لا يمكن النظر إلى الخريطة الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف بمعزل عن المحددات الجغرافية، والبيئية التي شكلت وعي الإنسان الأندلسي، فإذا كان المبحثان السابقان قد تناولوا توزيع المراكز، وآليات التواصل، فإن هذا المبحث يسعى لاستقراء الماهية الثقافية التي أفرزها هذا الواقع المكاني.

فقد تميزت الجغرافيا الثقافية في هذه الحقبة بخصوصية فريدة نبعت من التفاعل بين الإنسان والبيئة، حيث لم يعد المكان مجرد ساحة للأحداث السياسية المتوترة - كما تشير إليها كتابات السقوط والانحسار - بل تحول إلى فاعل رئيس في صياغة المنتج الأدبي والفني، فمما يرصده المثلث عن ذلك التاريخ أن تفتت الوحدة السياسية في نظام الطوائف، أدى بمفارقةٍ بديعة إلى توطين الثقافة؛ فكل إقليم انكفأ على ذاته الجغرافية يستلم منها خصوصيته، مما أنتج مشهداً ثقافياً يتسم بخصائص بنيوية محددة، لعل أبرزها تلك العلاقة العضوية بين المبدع وبيئته، فجعلت للمكان قيمة عالية في وجدان الإنسان الأندلسي عبر التفاعل البشري معه، وسيظهر ذلك جلياً في المطلبين الآتين:

أولاً: استلهام الطبيعة والبيئة في التشكيل الثقافي:

تعد ظاهرة أنسنة المكان إحدى أبرز السمات التي ميزت الجغرافيا الثقافية للأندلس، حيث تجاوزت العلاقة بين الأندلسي وبيئته حدود المنفعة المادية إلى التماهي الوجداني، وقد تجلّى ذلك في تحول العناصر الطبيعية، كالأنهار، والحدائق، والجبال، والعناصر المعمارية، كالقصور، والباحات، والنوافير، من جمادات صامتة إلى ما يشبه الكائنات الحية الناطقة في الوعي الجمعي، والنصوص الأدبية، فمن ذلك:

1 - التحول من الوقوف على الطلل الصحراوي إلى الروض الأندلسي:

شكلت البيئة والجغرافية للأندلس قطيعة معرفية، وجمالية مع الموروث المشرقي القديم، فبينما كانت القصيدة المشرقية أسيرة الوقوف على الأطلال، وصور الصحراء، فرضت الجغرافيا الأندلسية الخضراء معجماً جديداً. (عليوي، 2015، ص5).

فالشعراء الأندلسيون لم يكتفوا بوصف الطبيعة وصفاً عابراً، بل قاموا ببث الروح فيها؛ فالنهر يضحك، والغمام يبكي، والزهور تتناغم، وهذا التحول لم يكن ترفاً بلاغياً، بل كان انعكاساً لواقع جغرافي تزخر فيه الأرض بالمياه، والخصوبة، وهو ما أكدته شهادات الرحالة المشاركة، الذين وصفوا الأندلس بأنها جنة الدنيا، مما جعل الاستجابة الثقافية لهذا المعطى البيئي تأتي في صورة أدب يحتفي بالحياة، والجمال. (حمزة، 2013، ص 115 - 120)

2 - ظهور القصور كفضاءات ثقافية بيئية:

في عصر ملوك الطوائف، تحول التنافس السياسي بين الملوك إلى تنافس عمراني، وثقافي، حيث سعت كل طائفة لإنشاء قصورها وساحاتها، ومناراتها التي تتميز بها، فاهتم ملوك الطوائف مثل بني عباد في إشبيلية، وبني ذي النون في طليطلة بإنشاء المنتزهات، والرياض داخل قصورهم وخارجها، كقصريّ المبارك، والزاهي، وبالغوا في تزيينها. ومن أمثلة ذلك قصور المعتضد بن عباد، و"ما سمت إليه همته من إنشاء القصور الباذخة، والرباع العظيمة المغلة، وما عني به من تنظيم بلاط بني عباد، وتجهيزه بالعدد، والمظاهر الملوكية الفخمة، ونفيس المتاع، والرياض، حتى غدا أعظم وأفخم بلاط بين قصور الطوائف". (عنان، 1997، 55/2).

وتلك القصور الأندلسية لم تكن مجرد مبانٍ للسلطة، بل كانت مشاهد لامتزاج الفن بالطبيعة، وتوظيفاً للعناصر المعمارية، كالبرك، والقباب، والمنارات داخل النصوص الشعرية في الموشحات، باعتبارها جزءاً من الطبيعة، وليست دخيلة

عليها، فذلك العمران لم يكن يُنظر إليه كعمل هندسي فحسب، بل كصورة شعرية حية تعكس اهتمام الأندلسي بالماء، والشجر، والورد - المزين لتلك القصور، والباحات- كعنصر حياة، وهو ما يمثل قمة التماهي الثقافي مع البيئة.

3- إشراك الطبيعة كمساعد للتخفيف من آلام الواقع السياسي الذي يشعره الأندلسي:

في الوقت الذي كانت فيه الأندلس تعاني من حروب وأحداث قتل، وتهجير كبرى مزقتها، وغيرت ماضي ازدهارها بالوحدة، والقوة السياسية، انفتح الفكر الأندلسي على الطبيعة كجانب آمن يحمل الجمال، ولم يتسبب بأي أذى للإنسان. فأصبحت مجالس الشعر في الطبيعة، وصوت مائها بديلاً عن صخب المعارك والحروب، وأضحت الموشحات التي تتغنى بالرياض سبيلاً للبعد عن أخبار واقع الهزائم السياسية، وهذا التناقض بين الضعف في القوة العسكرية والتغني بجمال الطبيعة وسكونها هو ما أعطى الأدب الأندلسي في تلك الفترة شجناً خاصاً، وجعل الارتباط بالأرض يأخذ بُعداً حزيناً مبكراً؛ خوفاً من فقدان هذا الجمال في الأرض، وهو ما ظهر لاحقاً بوضوح في رثاء المدن.

4- نظرة الأخر، وترسيخ الصورة النمطية:

لقد ساهمت كتابات الجغرافيين المشاركة في تعزيز هذه السمة؛ فالمشرفي كان يرى الأندلس من خلال جغرافيتها المائية، والنباتية، ووصفهم لمدينة الأندلس لم يخلُ من الربط بين اعتدال المناخ، ورقة الطبيعة، وهذه النظرة الخارجية تؤكد أن البيئة لم تشكل فقط الأدب المحلي، بل شكلت أيضاً هوية الأندلس في الوعي العام آنذاك. (حمزة، 2013، ص140) إن خاصية أسنة المكان التي اصطبغ بها الأندلسي تؤكد أن الجغرافيا في عصر ملوك الطوائف لم تكن وعاءً سلبياً، بل كانت شريكاً فاعلاً في الإنتاج الثقافي، صاغ الأندلسي من مراحها هويته من خلال تفاعله اليومي مع بيئته، فجاء أدبه الموشحات، وعمارته - أيضاً - مرآة لهذه الطبيعة المتنوعة، مشكلاً بذلك نموذجاً فريداً لثقافة المكان، والبيئة.

ثانياً: ثقافة التنوع السكاني وأثره في النتاج الثقافي:

إذا كان المطلب السابق قد عالج أثر المكان في تشكيل الثقافة الأندلسية، فإن هذا المطلب ينتقل لدراسة الإنسان الذي عمر هذا المكان.

فقد تميزت الأندلس - وخاصة في عصر ملوك الطوائف - بتنوع ديموغرافي لم يعرف له العالم الإسلامي نظيراً في تلك الحقبة، وهذا التنوع لم يكن مجرد تجاوز سكاني، بل كان تفاعلاً ديناميكياً أنتج ثقافة تعددية، حملت بصمات كل الأعراق التي سكنت شبه الجزيرة الإيبيرية، وستحدث عن بعض جوانب ذلك في النقاط الآتية:

1- نبذ الصراع مع وجود التعددية العرقية المختلفة، والانتقال إلى ميادين التلاحق الثقافي:

فلم يكن المجتمع الأندلسي كتلة متجانسة، بل كان خليطاً من العرب بقباثلهم المختلفة، والبربر، والمولدين من السكان الأصليين الذين أسلموا، والصقالبة، إضافة إلى أهل الذمة من المستعربين، واليهود، وكان عصر الطوائف العصر الذهبي لظهور أثر هذه التعددية؛ حيث استقلت كل طائفة بعنصر غالب، لكن الثقافة ظلت مشتركة.

ف نجد أن الصراع السياسي بين هذه المكونات - خاصة بين العرب والبربر والمولدين - كان يخفي تحته طبقة من التمازج الثقافي العميق، فبينما كانت السياسة تفرقهم، كانت الثقافة تجمعهم؛ حيث تبنى البربر والصقالبة اللسان العربي، والثقافة العربية، بل وناقسوا العرب في الشعر، والأدب، وهذا التعريب الثقافي للأعراق المختلفة أدى إلى إثراء المنتج الثقافي بإيحاء غير عربي، فظهرت مفردات وصور خيالية جديدة في الأدب، لم تكن مألوفة في الشعر العربي التقليدي. (دوزي، 1964، 50/2)

2- أثر المولدين والمستعربين في ازدواجية اللغة والفن:

لعل أبرز ملامح الجغرافيا الثقافية الأندلسية هو تلك الازدواجية اللغوية التي نتجت عن الاختلاط اليومي بين العرب والسكان الأصليين، وهذا الاختلاط في الأسواق، والبيوت أنتج لغة تخاطب يومية، انعكست بوضوح في الموشحات: وهي ضرب

من الشعر استحدثه الأندلسيون، أكثر ما ينتهي إلى سبعة أبيات (الزيدي، 2001، 210/7)، والأزجال، وهو فن العامة في الأندلس، استحدثوه، وبه ينظمون في بحور الشعر المعاني التي اشتهر بها الشعر العربي القديم لكن بلغتهم العامية، فتجمع وزن الشعر، ولحن الزجل على المبالغة المألوفة. (الحموي، 2004، 9/1).

ومما يلمح إلى ذلك ما عرف بالهرجة الأخيرة في الموشح، التي كانت تُكتب غالباً باللغة الرومانسية (الأعجمية) أو بالعامية الأندلسية، فوجود جملة أعجمية في قلب قصيدة عربية فصحي يُعد وثيقة تاريخية تثبت أن الثقافة الأندلسية كانت نتاجاً لواقع ديموغرافي مختلط، حيث فرضت اللغة الأم للمولدين والمستعربين نفسها على لغة الثقافة الرسمية، مما أنتج فناً لا هو بالعربي الخالص ولا بالأوروبي الخالص، بل هو أندلسي مشرق في آن واحد، وكان له الأثر الكبير على الأدب الإسباني، والأوروبي بعد ذلك. (العقيقي، 1964، 102/1 - 103).

3- دور الصقالبة في شرقنة الأندلس وترفيها:

لقد شكل الصقالبة -الذين تعود أصولهم إلى شرق أوروبا - عنصراً ديموغرافياً مؤثراً، خاصة بعد سقوط الخلافة الأموية، واستقلالهم ببعض المدن، كالمدينة، ودانية، وطرطوسة. ورغم أصولهم الأوروبية، فقد كانوا من أشد الناس تمسكاً بالثقافة المشرقية في المأكّل، والملبس، والغناء، وتحولت مدنهم إلى مراكز استقطاب للعلماء والأدباء. (دوزي، 1964، 35/2) فساهم هذا المكون الديموغرافي في تكريس نمط حياة يتسم بالبذخ، والترف، وهو ما انعكس في وصف الجغرافيين، والرحالة المشاركة للأندلس، حين يذكرون أن القادم إلى مدن الأندلس كان يذهله مستوى الرفاهية، والتنظيم الذي يختلف عن خشونة الحياة في المغرب أو بساطتها في بعض نواحي المشرق. (حمزة، 2013، ص145)

4- الانفتاح القسري وتداخل الثقافات في عصر الاضطراب:

في ظل التحديات العسكرية التي واجهتها الأندلس، اضطرت المجتمع الأندلسي للانفتاح - سلماً أو حرباً - على الممالك المسيحية في الشمال، سواء عبر التحالفات السياسية، ودفع الجزية، أو عبر التجارة، مما كان له الدور في تسلسل مؤثرات ثقافية متبادلة. (خيرو، 2003، ص10 - 14).

فالخوف من الآخر لم يمنع من التأثر به، حيث نجد تسرباً لبعض العادات الاجتماعية، وحتى في العمارة والفنون، مما جعل المنتج الثقافي الأندلسي يحمل سمات التنوع، والمرونة، وهي سمة المجتمعات الحدودية التي تتشكل هويتها عبر الاحتكاك المستمر مع الآخر المختلف.

فالمنتج الثقافي الأندلسي شعراً، وعمارةً، وفناً، لم يكن إلا صدىً للبنية الديموغرافية للمجتمع، والتنوع السكاني لم يكن عامل ضعف ثقافي، بل كان المحرك الأساس للإبداع، حيث أدى انصهار هذه العناصر المختلفة في دائرة الإسلام، واللغة العربية إلى إنتاج نموذج حضاري فريد يتميز بالانفتاح، والتعدد، ويختلف جذرياً عن النموذج الأحادي المنغلق.

المطلب الثاني: التحديات التي واجهتها الجغرافيا الثقافية في عصر ملوك الطوائف:

إذا كانت المباحث السابقة قد احتفت بجماليات الجغرافيا الثقافية وتنوعها، فإن المنهجية العلمية تقتضي استقراء الوجه الآخر لهذه العملية، إذ حمل واقع التفتت السياسي في طياته بذور أزمات بنيوية، هددت المنتج الثقافي في جوهره، فالجغرافيا التي منحت التنوع، هي ذاتها التي فرضت التشتت، والبيئة التي ألهمت الشعراء، هي ذاتها التي ضاقت بالفلاسفة في بعض الأحيان.

ويسعى هذا المبحث لتفكيك إشكاليات المشهد الثقافي، راصداً كيف تحول المكان من بيئة حاضنة إلى طارده، وكيف أدى تآكل الجغرافيا السياسية إلى انحسار الجغرافيا الثقافية، وهو ما سيظهر في المطالب الآتية:



أولاً: الضعف بسبب التفرق والاختلاف:

مثل نظام ملوك الطوائف حالة فريدة من اللامركزية السياسية، ورغم ما أفرزه من تعددية، إلا أنه فرض ضريبة باهظة على البنية التحتية للثقافة، والعلم في مستقبل السنين، وكان له آثاره السلبية، التي منها:

1 - هجرة العلماء:

ومن أمثلة ذلك ما حصل للإمام ابن حزم، فقد أدت الصراعات البينية المستمرة بين أمراء الطوائف إلى خلق بيئة جغرافية طاردة للكفاءات، فلم يعد العالم يجد الاستقرار الذي كان يوفره المركز الواحد في قرطبة الأموية. وتعد سيرة الإمام ابن حزم الأندلسي النموذج المؤلم لظاهرة العالم اللاجئ، أو المثقف الرحالة قسرًا، فكانت حياته في تلك الفترة - وهو في أسوأ مراحل العطاء العلمي - سلسلة من المنافي؛ فقد طرد من قرطبة، ثم انتقل إلى ألمرية فنفي منها، ثم قصد ميورقة فطورد فيها، لينتهي به المطاف في بادية لبلة. (إبراهيم، 1966، ص 45 - 50).

وهذا التشتت الجغرافي لم يكن خيارًا للعالم، بل هروبًا من الملاحقات السياسية، والفكرية، فقد أدى هذا الاضطراب بين ممالك الأندلس إلى استنزاف طاقات العلماء في الترحال، والبحث عن مأوى، بدلًا من التفرغ لبناء مراكز علمية مستقرة، تتفرغ لنقل العلم، مما جعل المنتج العلمي -رغم غزارته- جهدًا فرديًا يفتقد للمؤسسية التي ترعاها الدولة المركزية.

2 - استنزاف الموارد وأثره على المؤسسات العلمية:

فقد تطلب البقاء السياسي لملوك الطوائف إنفاقًا عسكريًا هائلًا، إضافة إلى دفع الإتاوات السنوية للممالك النصرانية في الشمال، وهذا التزيف المالي كان له انعكاس مباشر على اقتصاديات المعرفة؛ فقد تراجع الإنفاق على المكتبات العامة، والمدارس المفتوحة لعموم الناس مقارنة بعصر الخلافة الأموي، وبدلًا من ذلك انحصرت الرعاية الثقافية في البلاطات الملكية حيث كان الملوك يقدون على شعراء المديح لحكمهم، بينما كانت البنية التحتية العلمية الحقيقية تضم. (خير، 2003، ص 15).

فتحولت الثقافة في هذا السياق إلى سلعة ترف للنخبة، وليست مشروع دولة لبناء المجتمع.

ثانيًا: حدوث الصراع بين الفقيه والفيلسوف في الفضاء الأندلسي:

لم يكن الفضاء الجغرافي الأندلسي فضاءً مفتوحًا بالكامل لحرية الفكر، بل كان محكومًا بمعادلات اجتماعية، ودينية صارمة أحيانًا، مارست فيها بعض القوى دور الرقيب على المنتج العقلي، وسنستعرض ذلك في النقطتين الآتيتين:

2 - جغرافيا التضييق على العلوم العقلية:

لقد تميز المجتمع الأندلسي تاريخيًا بسيادة المذهب المالكي، وسلطة الفقهاء القوية على العامة، وفي عصور الاضطراب السياسي وجد المشتغلون بالفلسفة والمنطق أنفسهم في بيئة معادية أحيانًا، حيث كان العامة يُحرّضون ضدهم بتهمة الزندقة، وهذا المناخ الضاغط دفع بعض العلماء إلى قصر تدريس هذه العلوم على دوائر ضيقة جدًا، مما أحدث نقصًا في نمو هذه العلوم مقارنة بالشرق في العصر البويهي أو العباسي. (عنان، 1997: 415/2 - 420؛ إبراهيم، 1966، ص 112)

2 - إحراق الكتب ومصادرة الفكر:

فلم تكن الرقابة معنوية فحسب، بل اتخذت أشكالًا مادية عنيفة، وتظل حادثة إحراق كتب الإمام ابن حزم علانيةً بأمر من المعتضد بن عبّاد في إشبيلية وصمة في تاريخ تلك الحقبة، وولد ذلك ابن حزم في قصيدته الشهيرة:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدي

يسير معي حيث استقلت ركائي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

(ابن حزم، 2005: 210/1).



وهذه الحادثة، وغيرها من حوادث التضيق التي وردت في سياق الصراعات المذهبية، والسياسية، تؤكد أن التفتت الجغرافي لم يؤد بالضرورة إلى حرية فكرية مطلقة، بل خلق تفرّدًا وتعسّفًا أحيانًا يخشى فيها العالم من قول كلمة الحق. (المقري، 1997، 82/2)

فاجتمع على المثقف الأندلسي تربيص العدو الخارجي الذي يسعى لتوعية المجتمع به، ووعيد الملك المنفرد بالأقاليم التي يعيشها.

ثالثًا: تآكل الجغرافيا الثقافية: ابتداءً بسقوط الثغور وضياع التراث:

كان التحدي الوجودي الأخطر الذي واجهته الثقافة الأندلسية هو الخسارة المادية للأرض، التي استتبعها خسارة الذاكرة، والتراث، ومن أهم المواقف في ذلك:

1 - سقوط طليطلة عام (478هـ)، كنموذج للقطيعة المعرفية عن باقي المدن الأندلسية:

فلم يكن سقوط طليطلة مجرد خسارة لمدينة حصينة، بل كان زلزالًا ثقافيًا، فقد كانت طليطلة خزانة الأندلس، ومركزًا للمكتبات العلمية الضخمة، وبسقوطها في يد (ألفونسو السادس)، انتقل هذا الرصيد المعرفي الهائل إلى سيادة قوم آخرين. ومع سقوط المدينة ابتدأ تشكّل ما عرف بمدرسة طليطلة للمترجمين، حيث نُقلت علوم المسلمين إلى اللاتينية، ورغم أن هذا أفاد أوروبا إلا أنه شكّل للمسلمين نزيهًا معرفيًا، وقطيعة جغرافية، حيث حُرّم العالم الإسلامي والأندلس من أحد أهم رثاته الثقافية، وتحولت تلك المكتبات من أدوات لإنتاج المعرفة الإسلامية إلى أدوات لدراسة الآخر، ونقده أو استيعابه. (فيرنيت، 1997، ص 84، 85)

2 - العزلة الثقافية وبداية الانكفاء:

فمع تزايد الضغط العسكري النصراني وسقوط الثغور واحدًا تلو الآخر، تغيرت سيكولوجية الثقافة الأندلسية، فتحول المجتمع من حالة الاستقرار، والإبداع إلى حالة الانقباض، والدفاع في أواخر عصر ملوك الطوائف، وبداية عصر المرابطين، وأصبحت الأولوية هي الحفاظ على الهوية، ومواجهة عملية الاستيلاء، وترك الدين؛ مما أدى إلى نوع من الجمود والتقليد، ورفض كل ما هو دخيل أو فلسفي، باعتباره أحد أسباب الوهن.

وهذا التحول يمثل تراجعًا في حيوية الجغرافيا الثقافية، حيث أصبحت الثقافة سلاحًا للدعوة إلى جمع القوة العسكرية، أو رثاء المدن، أكثر منها أداة للمعرفة العقلية والابتكار. (عنان، 1997: 412/2 - 420، عباس، 1978، ص 340)

النتائج:

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1 - أظهرت نتائج البحث أن عصر ملوك الطوائف لم يكن مجرد مرحلة تفكك سياسي، بل كان إعادة تشكّل للمشهد الثقافي على أسس جغرافية - سياسية جديدة؛ إذ أدى سقوط المركز (قرطبة) إلى نشوء لامركزية ثقافية فاعلة، توزعت فيها الوظائف الحضارية بين الحواضر، مما وسّع دائرة الإنتاج الثقافي وربطه بالمجال المكاني لكل مدينة.

2 - كشف النتائج أن الخريطة الثقافية لعصر ملوك الطوائف لم تكن مستقلة عن الواقع الجغرافي والسياسي، بل جاءت انعكاسًا مباشرًا له؛ حيث أسهمت الخصائص السكانية والعسكرية والاقتصادية لكل إقليم في توجيه تخصصه المعرفي، فبرزت إشبيلية في الأدب، ومدن الثغور في العلوم العقلية، والأطراف في التخصصات الدقيقة، بما يؤكد أن تنوع البيئات كان سببًا في تنوع أنماط الإنتاج الثقافي.

- 3- أكدت نتائج البحث أن المنتج الثقافي في عصر ملوك الطوائف كان استجابة وظيفية لتحديات الجغرافيا؛ فالابتكار الأدبي، والاهتمام بالعلوم، والعمارة، كلها جاءت لتعزيز الشرعية السياسية، أو لمواجهة الآخر، أو للتعبير عن واقع اجتماعي متداخل، وهو ما يبرز العلاقة السببية بين السياق المكاني وشكل الإبداع الثقافي.
- 4- كشفت النتائج عن البعد السلبي للجغرافيا الثقافية؛ إذ أدى سقوط بعض المراكز الكبرى إلى نزيف معرفي وانتقال الإنتاج إلى الخارج، خاصة في طليطلة، حيث تحولت من مركز إنتاج إلى جسر لنقل المعرفة إلى أوروبا، مما يعكس أن تحولات المجال الجغرافي لم تُنتج ازدهاراً فقط، بل أفضت أيضاً إلى تحولات عميقة في وظيفة الثقافة ودورها الحضاري.
- 5- أسهمت الجغرافيا الحدودية (الثغور) في نشوء ثقافة عقلية نقدية قائمة على المناظرة والترجمة، بفعل الاحتكاك المستمر مع الآخر، مما جعلها بيئات علمية منفتحة على العلوم العقلية والفلسفة.
- 6- أفرزت الجغرافيا البحرية والتجارية في بعض مراكز الأطراف (كالمرية ودانية) تخصصاً علمياً دقيقاً، خاصة في علوم القرآن والفراءات والصناعات المعرفية، نتيجة انفتاحها على شبكات الاتصال والتبادل الثقافي.
- 7- كشفت نتائج البحث أن التعدد الجغرافي للمراكز الثقافية في الأندلس أسهم في إنتاج هوية ثقافية مركبة، جمعت بين الذاكرة القرطبية، والابتكار الإقليمي، والانفتاح الحدودي، بما يجعل من عصر الطوائف تجربة حضارية ذات طابع تكاملي رغم تفككه السياسي.

وختاماً: يمكن القول إن ملوك الطوائف رغم فشلهم في الحفاظ على وحدة الجغرافيا السياسية إلا أنهم أسهموا في ترسيخ جغرافيا ثقافية غنية ومتنوعة، ظلت آثارها باقية وشاهدة على حيوية الحضارة الأندلسية، وقدرتها على التكيف مع أصعب الظروف.

التوصيات:

بناءً على ما تقدم، يوصي البحث بالآتي:

- 1- إجراء بحوث تفصيلية تركز على الجغرافيا الثقافية للمدن الأندلسية.
- 2- دراسة تأثير الجغرافيا الطبيعية (المناخ، التضاريس، الموارد المائية) على اتجاهات الفنون، والعمارة في عصر الطوائف بشكل أكثر تخصصاً.
- 3- عقد الدراسات المقارنة بين الجغرافيا الثقافية لعصر الطوائف وفترات أخرى؛ لرصد التحولات في العلاقة بين المثقف والمكان.

المراجع:

- إبراهيم، ز. (1966)، *ابن حزم الأندلسي*. الدار المصرية.
- ابن أبي أصيبعة، أ. (د.ت.). *عيون الأنباء في طبقات الأطباء* (نزار رضا، تحقيق). دار مكتبة الحياة.
- ابن بشكوال، خ. (1955). *الصلة في تاريخ أئمة الأندلس* (ط. 2). مكتبة الخانجي.
- جاسم، ب. وموسى، س. (2008). أبو الوليد الباجي وأثره في الدعوة لتوحيد الأندلس. *مجلة ديالى*، (30). 1-22.
- الجيوسي، س. (1999). *الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس* (ط. 2). مركز دراسات الوحدة العربية.
- ابن حزم، ع. (2005). *الإعراب عن الحيرة والالتباس الموجودين في مذاهب أهل الرأي والقياس* (محمد رستم، تحقيق؛ ط. 1). دار أضواء السلف.
- ابن حزم، ع. وابن سعيد، ع. والشقندي، إ. (1968). *فضائل الأندلس وأهلها* (صلاح الدين المنجد، تحقيق). دار الكتاب الجديد.



- حسين، ش. (2012). الحسبة والمحتسب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط مدينة قرطبة [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة الجزائر 1.
- حمدان، ج. (1996). المدينة العربية. دار الهلال.
- حمزة، آ. (2013). الأندلس في كتب الجغرافيين والرحالة المشاركة من القرن 3هـ إلى 8هـ [رسالة دكتوراه غير منشورة]. جامعة بغداد.
- الحموي، أ. (2004). خزنة الأدب وغاية الأرب (عصام شقيو، تحقيق). دار ومكتبة الهلال.
- الحميدي، م. (1966). جذوة المقتبس في ذكر وفاة الأندلس. الدار المصرية.
- ابن الخطيب، م. (2003). الإحاطة في أخبار غرناطة (ط. 1). دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، ع. (1981). العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (ط. 1). دار الفكر.
- خيرو، ع. (2003). إشكاليات المد والانحسار الإسلامي في الأندلس. جامعة بغداد.
- دوزي، ر. (1964). المسلمون في الأندلس (حسن حبشي، ترجمة). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الذهبي، م. (1985). سير أعلام النبلاء (حسين أسد وآخرون، تحقيق؛ ط. 3). مؤسسة الرسالة.
- رستم، م. (2008). بيوتات العلم والحديث في الأندلس (ط. 1). دار ابن حزم.
- الزيدي، م. (2001). تاج العروس من جواهر القاموس. وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.
- الزركلي، خ. (2002). الأعلام (ط. 15). دار العلم للملايين.
- سالم، س. (1986). المساجد والقصور في الأندلس. مؤسسة شباب الجامعة.
- السبكي، ع. (1992). طبقات الشافعية الكبرى (محمود الطنحاي، وعبد الفتاح الحلو، تحقيق؛ ط. 2). دار هجر.
- الشنتريني، علي. (1981). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (إحسان عباس، محقق). (ط. 1). الدار العربية للكتاب.
- الصفدي، ص. (2000). الوافي بالوفيات (أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، تحقيق). دار إحياء التراث.
- عباس، إ. (1960). تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة (ط. 1). دار الثقافة.
- عباس، إ. (1978). تاريخ الأدب الأندلسي - عصر ملوك الطوائف (ط. 5). دار الثقافة.
- ابن عذارى، أ. (2012). البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (بشار عواد، ومحمود بشار عواد، تحقيق؛ ط. 1). دار الغرب الإسلامي.
- العقيقي، نجيب. (1964). المستشرقون (ط. 3). دار المعارف.
- علي، م. (1923). غابر الأندلس وحاضرها (ط. 1). المكتبة الأهلية.
- عليوي، س. (2015). الطبيعة الجامدة في الموشحات الأندلسية. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، (21) 282-285.
- ابن العماد، ع. (1986). شذرات الذهب في أخبار من ذهب (محمود الأرنؤوط، تحقيق؛ ط. 1). دار ابن كثير.
- عنان، م. (1996). دولة الإسلام في الأندلس (ط. 4). مكتبة الخانجي.
- أبو عيانة، ف. وأبو راضي، ف. (د.ت.). أسس علم الجغرافيا الطبيعية والبشرية. دار المعرفة الجامعية.
- الفضلي، م. (2015). الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (ط. 1). جامعة بغداد.
- فيرنيت، خ. (1997). فضل الأندلس على ثقافة الغرب (نهاد رضا، ترجمة؛ ط. 1). دار إشبيلية.



- القاضي عياض، ع. (1968). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (أحمد بكير محمود، تحقيق). دار مكتبة الحياة.
- القلقشندي، أ. (1980). نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (إبراهيم الأبياري، تحقيق؛ ط. 2). دار الكتاب.
- كرانغ، م. (2005). الجغرافيا الثقافية (سعيد منتاق، ترجمة). عالم المعرفة.
- كوش، د. (2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية (منير السعيداني، ترجمة). المنظمة العربية للترجمة.
- محمد، م. والفراء، ط. (د.ت.). المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة. دار المريخ.
- المراكشي، ع. (2006). المعجب في تلخيص أخبار المغرب (صلاح الدين الهواري، تحقيق؛ ط. 1). المكتبة العصرية.
- المقري، أ. (1997). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (إحسان عباس، تحقيق؛ ط. 5). دار صادر.
- مؤنس، ح. (1995). موسوعة تاريخ الأندلس. (ط. 1). مكتبة الثقافة الدينية.
- النويري، أ. (2002). نهاية الأرب في فنون الأدب (ط. 1). دار الكتب والوثائق القومية.
- هونكه، ز. (2010). شمس الله تشرق على الغرب. (فؤاد علي حسنين، تحقيق؛ ط. 2). دار العلم العربي.

References

- 'Abbas, I. (1960). *Tarikh al-adab al-Andalus: 'Asr siyadat Qurtubah* [History of Andalusian literature: The age of Cordoban supremacy] [in Arabic] (1st ed.). Dar al-Thaqafah.
- 'Abbas, I. (1978). *Tarikh al-adab al-Andalus: 'Asr muluk al-tawa'if* [History of Andalusian literature: The age of the Taifa kingdoms] [in Arabic] (5th ed.). Dar al-Thaqafah.
- 'Ali, M. (1923). *Ghabir al-Andalus wa hadiraha* [The past and present of al-Andalus] [in Arabic] (1st ed.). Al-Maktabah al-Ahliyyah.
- 'Aliwi, S. (2015). Al-tabi'ah al-jamidah fi al-muwashshahat al-Andalusiyyah [Inanimate nature in Andalusian muwashshahat] [in Arabic]. *Journal of the College of Basic Education for Educational and Human Sciences*, 21, 282–285.
- 'Inan, M. (1996). *Dawlat al-Islam fi al-Andalus* [The Islamic state in al-Andalus] [in Arabic] (4th ed.). Maktabat al-Khanji.
- Abu 'Ayanah, F., & Abu Radi, F. (n.d.). *Usus 'ilm al-jughrafiya al-tabi'iyyah wa al-bashariyyah* [Foundations of physical and human geography] [in Arabic]. Dar al-Ma'rifah al-Jami'iyyah.
- Al-'Aqiqi, N. (1964). *Al-mustashriqun* [The Orientalists] [in Arabic] (3rd ed.). Dar al-Ma'arif.
- Al-Dhahabi, M. (1985). *Siyar a'lam al-nubala'* [Biographies of distinguished figures] [in Arabic] (H. al-Asad et al., Eds.; 3rd ed.). Mu'assasat al-Risalah.
- Al-Fadli, M. (2015). *Al-hayah al-ijtima'iyyah fi al-Andalus khilal al-qarnayn al-khamis wa al-sadis al-Hijri* [Social life in al-Andalus during the fifth and sixth Hijri centuries] [in Arabic]. University of Baghdad.
- Al-Hamawi, A. (2004). *Khizanat al-adab wa ghayat al-arab* [The treasury of literature and the ultimate aim of eloquence] [in Arabic] (I. Shaqyu, Ed.). Dar wa Maktabat al-Hilal.
- Al-Humaydi, M. (1966). *Jadhwat al-muqtabis fi dhikr wulat al-Andalus* [An ember for the seeker: On the governors of al-Andalus] [in Arabic]. Al-Dar al-Misriyyah.
- Al-Jayyusi, S. (1999). *Al-hadarah al-'Arabiyyah al-Islamiyyah fi al-Andalus* [Arab-Islamic civilization in al-Andalus] [in Arabic] (2nd ed.). Markaz Dirasat al-Wahdah al-'Arabiyyah.
- Al-Maqqari, A. (1997). *Nafh al-tib min ghusn al-Andalus al-ratib* [The fragrance of perfume from the flourishing branch of al-Andalus] [in Arabic] (I. 'Abbas, Ed.; 5th ed.). Dar Sadir.
- Al-Marrakushi, A. (2006). *Al-mu'jib fi talkhis akhbar al-Maghrib* [The admirable summary of the history of the Maghreb] [in Arabic] (S. al-Hawwari, Ed.; 1st ed.). Al-Maktabah al-'Asriyyah.



- Al-Nuwayri, A. (2002). *Nihayat al-arab fi funun al-adab* [The ultimate objective in the arts of literature] [in Arabic] (1st ed.). Dar al-Kutub wa al-Watha'iq al-Qawmiyyah.
- Al-Qalqashandi, A. (1980). *Nihayat al-arab fi ma'rifat ansab al-'Arab* [The ultimate objective in the knowledge of Arab genealogies] [in Arabic] (I. al-Abyari, Ed.; 2nd ed.). Dar al-Kitab.
- Al-Safadi, S. (2000). *Al-wafi bi al-wafayat* [The complete record of deaths] [in Arabic] (A. al-Arna'ut & T. Mustafa, Eds.). Dar Ihya' al-Turath.
- Al-Shantarini, A. (1981). *Al-dhakhirah fi mahasin ahl al-jazirah* [The treasury of the merits of the people of the peninsula] [in Arabic] (I. 'Abbas, Ed.; 1st ed.). Al-Dar al-'Arabiyyah lil-Kitab.
- Al-Subki, A. (1992). *Tabaqat al-Shafi'iyyah al-kubra* [The major biographical dictionary of Shafi'i scholars] [in Arabic] (M. al-Tanahi & A. al-Hilu, Eds.; 2nd ed.). Dar Hajar.
- Al-Zabidi, M. (2001). *Taj al-'arus min jawahir al-qamus* [The bride's crown from the jewels of the dictionary] [in Arabic]. Ministry of Information, Kuwait.
- Al-Zirikli, K. (2002). *Al-a'lam* [Notable figures] [in Arabic] (15th ed.). Dar al-'Ilm lil-Malayan.
- Crang, M. (2005). *Al-jughrafiya al-thaqafiyyah* [Cultural geography] [Arabic translation]. S. Mantaq (Trans.). 'Alam al-Ma'rifah.
- Cuche, D. (2007). *Mathum al-thaqafah fi al-'ulum al-ijtima'iyyah* [The concept of culture in the social sciences] [Arabic translation]. M. al-Sa'idani (Trans.). Arab Organization for Translation.
- Dozy, R. (1964). *Al-Muslimun fi al-Andalus* [Muslims in Spain] [in Arabic] (H. Habashi, Trans.). Egyptian General Book Organization.
- Hamdan, J. (1996). *Al-madinah al-'Arabiyyah* [The Arab city] [in Arabic]. Dar al-Hilal.
- Hamzah, A. (2013). *Al-Andalus fi kutub al-jughrafiyyin wa al-ruhhala al-mashariqah min al-qarn al-thalith ila al-thamin al-Hijri* [Al-Andalus in the writings of eastern geographers and travelers from the third to the eighth Hijri century] [Unpublished doctoral dissertation] [in Arabic]. University of Baghdad.
- Hunke, S. (2010). *Shams Allah tushriq 'ala al-Gharb* [Allah's sun shines over the West] [Arabic translation] (F. A. Husayn, Trans.; 2nd ed.). Dar al-'Ilm al-'Arabi.
- Husayn, S. (2012). *Al-hisbah wa al-muhtasib fi al-Andalus min al-fath al-Islami ila suqut madinat Qurtubah* [Hisbah and the muhtasib in al-Andalus from the Islamic conquest to the fall of Cordoba] [Unpublished master's thesis] [in Arabic]. University of Algiers 1.
- Ibn 'Idhari, A. (2012). *Al-bayan al-mughrib fi ikhtisar akhbar muluk al-Andalus wa al-Maghrib* [The remarkable exposition on the history of the kings of al-Andalus and the Maghreb] [in Arabic] (B. 'Awwad & M. 'Awwad, Eds.; 1st ed.). Dar al-Gharb al-Islami.
- Ibn Abi Usaybi'ah, A. (n.d.). *'Uyun al-anba' fi tabaqat al-atibba'* [Sources of information on the classes of physicians] [in Arabic] (N. Rida, Ed.). Dar Maktabat al-Hayah.
- Ibn al-'Imad, A. (1986). *Shadharat al-dhahab fi akhbar man dhahab* [Golden nuggets in the biographies of notable figures] [in Arabic] (M. al-Arna'ut, Ed.; 1st ed.). Dar Ibn Kathir.
- Ibn al-Khatib, M. (2003). *Al-ihatah fi akhbar Gharnatah* [The complete source on the history of Granada] [in Arabic] (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Ibn Bashkuwal, K. (1955). *Al-Silah fi tarikh a'immat al-Andalus* [The supplement on the history of the scholars of al-Andalus] [in Arabic] (2nd ed.). Maktabat al-Khanji.
- Ibn Hazm, A. (2005). *Al-'irab 'an al-hayrah wa al-iltibas al-mawjudayn fi madhahib ahl al-ra'y wa al-qiyas* [Clarification concerning the confusion and ambiguity found in the doctrines of the people of opinion and analogy] [in Arabic] (M. Rustum, Ed.; 1st ed.). Dar Adwa' al-Salaf.



- Ibn Hazm, A., Ibn Sa'īd, A., & Al-Shaqundi, I. (1968). *Fada'il al-Andalus wa ahluha* [The virtues of al-Andalus and its people] [in Arabic] (S. al-Munajjid, Ed.). Dar al-Kitab al-Jadid.
- Ibn Khaldun, A. (1981). *Kitab al-'ibar wa diwan al-mubtada' wa al-khabar fi tarikh al-'Arab wa al-Barbar wa man 'asarahum min dhawi al-sha'n al-akbar* [Book of lessons and record of beginnings and events in the history of Arabs, Berbers, and their contemporaries] [in Arabic] (1st ed.). Dar al-Fikr.
- Ibrahim, Z. (1966). *Ibn Hazm al-Andalusī* [Ibn Hazm of al-Andalus] [in Arabic]. Al-Dar al-Misriyyah.
- Jasim, B., & Musa, S. (2008). Abu al-Walid al-Baji and his role in advocating the unity of al-Andalus. *Diyala Journal*, 30, 1–22. [in Arabic]
- Khayru, A. (2003). *Ishkaliyyat al-madd wa al-inhisar al-Islami fi al-Andalus* [Issues of Islamic expansion and decline in al-Andalus] [in Arabic]. University of Baghdad.
- Mu'nīs, H. (1995). *Mawsu'at tarikh al-Andalus* [Encyclopedia of the history of al-Andalus] [in Arabic] (1st ed.). Maktabat al-Thaqafah al-Diniyyah.
- Muhammadin, M., & Al-Farra', T. (n.d.). *Al-madkhal ila 'ilm al-jughrafiya wa al-bi'ah* [Introduction to geography and environmental studies] [in Arabic]. Dar al-Muraykh.
- Qadi 'Iyad, A. (1968). *Tartib al-madarik wa taqrib al-masalik li ma'rifat a'lam madhhab Malik* [Arrangement of perceptions and approximation of paths for knowing the scholars of the Maliki school] [in Arabic] (A. B. Mahmud, Ed.). Dar Maktabat al-Hayah.
- Rustum, M. (2008). *Buyutat al-'ilm wa al-hadith fi al-Andalus* [Scholarly and hadith families in al-Andalus] [in Arabic] (1st ed.). Dar Ibn Hazm.
- Salim, S. (1986). *Al-masajid wa al-qusur fi al-Andalus* [Mosques and palaces in al-Andalus] [in Arabic]. Mu'assasat Shabab al-Jami'ah.
- Tylor, E. (1871). *Primitive culture: Researches into the development of mythology, philosophy, religion, language, art, and custom*. John Murra.
- Vernet, J. (1997). *Fadl al-Andalus 'ala thaqafat al-Gharb* [The contribution of al-Andalus to Western culture] [in Arabic] (N. Rida, Trans.; 1st ed.). Dar Ishbiliyah.

